

العولمة وعالمية الإسلام

د. بلقاسم محمد الغالي*

* أستاذ مساعد بكلية الشريعة والقانون - جامعة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

ملخص:

مفهوم العولمة: ما زال مفهوم العولمة غير معرف بتعريف جامع مانع، فكل صاحب اختصاص يعرفها بحسب اختصاصه.

والعولمة: كلمة تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، بمعنى تعميم الشيء، وتوسيع دائرته، ويمكن أن يطلق عليها بشكل عام: أنها تعني اندماج أسواق العالم في حقول التجارة، والاستثمارات المباشرة، وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات والتقانة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق وخضوع العالم لقوى السوق العالمية، بما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية والانحسار الكبير في سيادة الدولة، لفائدة الشركات الرأسمالية الضخمة متعددة الجنسيات.

وهي ظاهرة متعددة الجوانب، تهدف إلى خلق سوق واحد، وعالم واحد، منطبعاً بالطابع الأمريكي بشكل تام.

نشأت العولمة في العقد الأخير من القرن العشرين، وأبرز عوامل ظهورها: الثورة التكنولوجية، وبروز الشركات متعددة الجنسيات، والأنشطة، وفائض الإنتاج في الدول الصناعية الكبرى.

وهناك جملة آليات لفرض العولمة، أهمها: الثورة المعلوماتية، والثورة العلمية، واستخدام المؤسسات الأممية لأغراض العولمة.

وقد تعدت مجالاتها:

١ - هناك العولمة السياسية، ويتمثل ذلك بضعف قوة الدولة، والخضوع لرأس المال.

٢ - العولمة الاقتصادية، وتتمثل في اتجاه معظم الدول لتبني الاقتصاد الحر.

٣ - العولمة الاجتماعية، وتتمثل في مجتمع المعلومات التي جعلت العالم كله قرية صغيرة.

والعولمة التي يريدها الغرب تشمل الفرد والأسرة. إذ ينشأ عنها تفكك الأسر وانحلال القيم، وتشمل المرأة خصوصاً، والزج بها في أسواق العمل،

نظراً لرخص أجرها، وزيادة تشغيلها في الفنادق والمطاعم والبنوك واستغلال صغيرات السن - بخاصة - للدعارة والفجور.

ما موقفنا من العولمة؟

للعولمة إيجابيات وسلبيات، فإن أمكن الاستفادة من إيجابياتها فأمر حسن، ولا بد من اجتناب السلبيات ومن أخطرها: الآثار الاجتماعية والاقتصادية المدمرة.

ولدينا - نحن المسلمين - البديل عن هذا الوافد الجديد «العولمة»، وذلك لأننا أبناء دين رسالته عالمية، ودعوته كذلك، ونظرته للنوع الإنساني عالمية المعايير والموازن في أصل النشأة والطبيعة الإنسانية، وأمتنا عالمية منتشرة على امتداد اليابسة، وخطابنا الفكري عالمي النزعة والاتجاه، ومثله كل القيم الإسلامية، والحلول التي يطرحها الإسلام لعلاج مشاكل البشرية، ونظامنا الاجتماعي عالمي المنزع والاتجاه، والدولة الإسلامية عالمية، تحفظ حقوق كل رعاياها وجيرانها على اختلاف أديانهم، فما علينا إلا إحياء مبادئ ديننا بشكل عملي، وبناء منطلقاتنا كلها على هديها ونورها، لنصبح أمة عالمية مرة أخرى كما سبق لنا ذلك.

أولاً - العولمة

تنبؤاً العولمة منزلة الصدارة في دائرة الاهتمام بالقضايا الفكرية المستجدة على الساحة العربية والإسلامية والعالمية، عقدت حولها الندوات الفكرية في الجامعات والمؤسسات، وكتبت حولها الجرائد والمجلات، وصدرت المؤلفات، ورغم ذلك فلا تزال القضية مركز الاهتمام، رغبة من أهل الفكر والاقتصاد والاجتماع والسياسة في معرفتها والإحاطة بها، لتجنب ما يحف بها من المحاذير. وتحاول هذه الدراسة التعريف بها وبعواملها وأنواعها: من العولمة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية.

ثم نطرح في الجزء الثاني عالمية الإسلام بوصفه بديلاً للعولمة، وعرض البحث إلى ما في الإسلام من جوانب تدل على عالميته - وقد طبقت على أرض الواقع - كما يشهد بذلك التاريخ. ثم ختمت ببيان خطوات على الطريق، توضح ما يمكن أن يخفف من صدمة العولمة.

وفي عصر العولمة «إما أكل أو مأكول» فكيف السبيل إلى التصدي إلى هذا الخطر الماحق؟

الرأي عند كثير من المفكرين - من داخل الفكر الإسلامي ومن خارجه أيضاً - ترشيح الإسلام كحل بديل للعولمة. وهذا ما ستحاول هذه الدراسة الكشف عنه.

١ - مفهوم العولمة:

يحظى مفهوم «العولمة» باهتمام واسع، ورغم ذلك - فشأنه شأن أي مفهوم جديد - لا يزال محل اختلاف من حيث الاصطلاح والتحديد، وكما قال أحد الباحثين العرب «إن العولمة بالنسبة للبعض مثل وصف العميان للفقير، كل يصفه حسب المكان الذي يضع عليه يديه»^(١). فالذي وضع يده على الخرطوم

(١) (الافتتاحية) د. محمد الرميحي، مجلة العربية، مجلة تصدر بالكويت عدد ٤٨٤ نو القعدة ١٤١٩ هـ - مارس ١٩٩٩ م.

عرف الفيل بأنه ذلك الذي له خرطوم، والذي وضع يده على الذيل وصفه بما وقعت به عليه فكذلك العولمة، من نظر إلى الجانب الاقتصادي فيها عرّفها بأنها تفاعلات اقتصادية، هدفها الربح أينما كان، وفي أي بلد من بلدان الأرض، والذي نظر إلى آثارها الثقافية عرف العولمة بأنها ليست مسألة اقتصادية فحسب، بل شأن ثقافي، وكذلك الأمر في عولمة السياسة، والعولمة الاجتماعية، والعولمة الزراعية، وعولمة الجريمة، وهكذا...

والعولمة ترجمة لكلمة Mondialisation الفرنسية التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي. على أن الكلمة الفرنسية إنما هي ترجمة لكلمة Globalization الإنكليزية التي ظهرت في أول أمرها في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء، وتوسيع دائرته، ليشمل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نستنتج أن الدعوة إلى العولمة إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة، ليشمل العالم كله^(٢).

والعولمة مشتقة من العالم، ولكنها ليست العالمية التي تعني التفتح على العالم وكل ما هو كوني، والأخذ والعطاء من الثقافات الأخرى، وهي لا تنفي التعارف والحوار والتلاقي، بل تقرّ التنوع والتمايز والمنافسة والتكامل، بينما العولمة احتواء للعالم، ومحاولة للهيمنة من قبل مركز محدد له الغلبة في الإنتاج الفني والتقني والثقافي.

ويمكن تعريف العولمة بأنها تعني بشكل عام «اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة، وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات والتقانة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، وخضوع العالم لقوى السوق العالمية، بما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية والانحسار الكبير في سيادة الدولة لفائدة الشركات الرأسمالية الضخمة متعددة الجنسيات»^(٣).

(٢) العولمة والهوية الثقافية، د. محمد عابد الجابري، مجلة المستقبل العربي، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببلنّان عدد ٢٢٨، ٢/١٩٩٨، ص ١٧.

(٣) مقال العرب والعولمة، ما العمل؟ لمحمود الأطرش، مجلة المستقبل العربي (مرجع سابق)، ص ١٠٠.

وهذا المفهوم يعني حركة انفتاح الحدود الاقتصادية والتشريعات التي تسمح للنشاطات الاقتصادية الرأسمالية بتوسيع حقل عملها ليشمل المعمورة كلها. والعولمة ظاهرة متعددة الجوانب، تهدف إلى خلق «سوق واحد، عالم واحد» وهو شعار يهدف إلى إزالة الحدود والقيود والانفتاح المطلق على نموذج ثقافي ذي مواصفات سريعة التغلغل في المجتمع العالمي، لما يمتاز به من صناعة تعتمد الجذب إليها بغض النظر عن فائدتها.

وأعطى ظهور وسائل اتصال متطورة جداً لهذا المفهوم حياة متجددة بعد أن قضى على المسافات. كما أعطى انهيار المعسكر السوفياتي والانتصار الكوني للنموذج الليبرالي في بداية التسعينات هذا المفهوم بعداً تاريخياً ومتسقبلياً.

إن مفهوم العولمة يكاد ينحصر في أنها ذلك التداخل الواضح لأُمُور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك الدولي، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة، ودون حاجة إلى إجراءات حكومية.

فنحن - إذاً - إزاء عملية تاريخية تعيد إلى الأذهان حركة الكشف الجغرافية والاستعمارية التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي عبرت عن توسع النظام الرأسمالي من أوروبا إلى خارجها. وقد أدت إلى إعادة تعريف العالم، وإلى اتساع المفهوم المكاني للعالم، بحيث أصبحت حدود العالم الجغرافية جزءاً من التكوين المعرفي للبشر، وصار ما يحدث اليوم هو إعادة تعريف للعالم على مستوى جديد، واتساع المفهوم التفاعلي والواقعي للعالم، بحيث تصبح كل أجزاء المعمورة مدمجة في تفاعلات نظام عالمي موحد.

ويقرر أنتوني ماكغرو «أن هناك أربع عمليات أساسية للعولمة، وهي على التوالي: المناسبة بين القوى العظمى، والابتكار التقني (التكنولوجي)، وانتشار عولمة الإنتاج، والتبادل والتحديث»^(٤).

(٤) «تأصيل الدراسات الكونية» نقلاً عن السيد ياسين، لأنتوني ماكغرو، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٢٨، بتاريخ ١٩٩٨، ص ٦.

ويضع جيمس روزناو مفهوماً للعولمة يطرح فيه المشكلات المرتبطة بها: مثل «الاقتصاد، السياسة، الثقافة، الأيديولوجيا، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج، وتداخل الصناعات عبر الحدود، انتشار أسواق التمويل، تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة». ويعقب على ذلك بقوله: يصعب إيجاد تحديد دقيق يصف كل هذه الأنشطة^(٥).

ومهما يكن من أمر فإن جوهر العولمة يتمثل في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكوني. وليست سيطرة النظام الدولي للرأسمالية التكنولوجية، واقتصادية، وسياسية فحسب، بل هي سيطرة علمية، وثقافية، وأيديولوجية، قيمية. فهي تتسرب إلى حياة الناس، وتستقر في النفوس كسلوك، وكعادات، وقيم.. لا ينجو منه أحد، يشمل كل الناس، فينقلون معاييرهم، ومفاهيمهم في كل ساعة وعلى الدوام، وتزرع أجهزة الإعلام والدعاية والإعلان، مفاهيمهم، وأيديولوجيته في أفئدة البشر، وتغزو مداركهم، وذكرياتهم، وتعرض منتجاته السلعية، ومعاييرهم القيمية بأكبر قدر ممكن من الإثارة، والافتتان، وتدفعهم إلى الشراء والاستهلاك، تحولهم إلى مستهلكين، وموضوعات تشكل أدواقهم وميولهم، ومنظومات القيم والأخلاق والمثل العليا لديهم. وتجعلهم زبائن يركضون خلف السلع المعروضة، لاهئين من أجل الوصول إليها. ففي الإذاعة والتلفزيون والصحافة، وفي السينما، وفي الملصقات الإعلانية وكيفما اتجه المرء يصادف صورة، وميزات هذه السلع تغزوه في غرفة نومه، وفي استراحته، وفي مكان عمله ولهوه، كي تكون السيطرة كاملة والتبعية مطلقة^(٦).

ويسمي بعضهم العولمة «بالكوكبة»، وحيناً يطلق عليها «الكونية»، وأحياناً يقصر هذا المفهوم على «الأمركة»، أي سيطرة القيم الغربية والنظام الأمريكي على العالم.

(٥) العرب والعولمة، بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، مقال السيد ياسين، طبعة مركز الوحدة العربية، لبنان ١٩٩٨، ص ٢٦.

(٦) الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، السيد ياسين، طبعة المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦، ج ٢، ص ٩٧.

وهذه الحالة ناتجة عن مشاعر التفرد التي عاشتها الولايات المتحدة في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية، وهي التي حدث بعالم السياسة الأمريكي «فرنسيس فوكوياما» لتصوير هذا الانهيار على أنه انتصار أمريكي مطلق، وسيادة أبدية للرأسمالية على كل ما عداها من الأيديولوجيات في مؤلفه الشهير «نهاية التاريخ». ولقد حاولت الولايات المتحدة صبغ دعوة «العولمة» - التي هي نتاج ظروف وتطورات سياسية واقتصادية وتكنولوجية عالمية - باللون والمذاق الأمريكيين، في محاولة لعولمة الثقافة الأمريكية. وامتدت إلى الكونجرس الأمريكي الذي سعى إلى عولمة القوانين الأمريكية، بإصدار قوانين أمريكية تفرض عقوبات على بعض الدول، وعلى كل من يتعامل معها، والسعي لجعل هذه القوانين: «قوانين عالمية» واجبة الاتباع والالتزام على كل دول العالم، كما هو الحال بالنسبة لقانون «داماتو» الخاص بكل من إيران وليبيا، وقانون «بيرون - هلمز» الخاص بكوبا.

ومما زاد هذه الدولة غروراً شيوع النموذج الأمريكي عالمياً في المأكّل «الهمبرغر»، والمشرب «الكوكاكولا»، والملبس «الجينز»، والموسيقى، والسينما لدى فئات الشباب. فما هي أسباب ذلك؟

تتميز الولايات المتحدة عن غيرها من الدول - التي قامت على تراث عرقي مشترك - في كونها إلى درجة كبيرة تمثل أمة من المهاجرين القادمين من بلاد وثقافات مختلفة، ومن أجل ذلك التنوع، كان لا بد للأمريكيين أن يبحثوا عما ينمي وحدة البلاد وهويتها، وأن يطوروا نوعاً من الرباط فيما بينهم يستطيع أن يتجاوز اختلافاتهم العرقية والثقافية. وقد وجد الأمريكيون ذلك الرباط فيما أصبح يسمى بالأيديولوجية الليبرالية الكلاسيكية، والتي كانت ولا تزال تؤثر بشكل كبير في المجتمع الأمريكي. وتعتبر الليبرالية الكلاسيكية أيديولوجية واسعة الانتشار، نشأت في أوروبا خلال القرنين السابع والثامن عشر، وتم نقلها إلى الولايات المتحدة عن طريق المهاجرين الأوائل الذين كانوا ينتمون في معظمهم إلى غرب وشمال غرب أوروبا. إلا أن تلك الأيديولوجيا قد تم تعديلها وتحويرها في خلق مجتمع أمريكي جديد، يختلف عن ماضيه

الأوروبي بشكل جذري، وتقوم الليبرالية الكلاسيكية الأمريكية على خمسة معتقدات أو التزامات متداخلة ومتفاعلة، وهي:

أ - **الفردية**: والتي تعني أن الهدف من وجود المجتمع والسياسات هو تحقيق وحماية الحقوق الفردية في الحياة، والحرية، وتحقيق السعادة لكل مواطن.

ب - **الحرية**: أي إعطاء الفرصة للأفراد لصنع خياراتهم في ظل أدنى حد ممكن من التدخل الحكومي.

ج - **المساواة**: والتي تعني ضمان المساواة الفعلية في الفرص للأفراد، وأن كل فرد يستحق فرصة متساوية للمنافسة على العمل، والدخل، والمكانة، والقيم الاجتماعية الأخرى.

د - **احترام الملكية الخاصة**: والتي من خلالها يتمكن الأفراد من تحديد مواقفهم وشخصياتهم، وحماية أنفسهم، وتحديد مواقعهم في المجتمع.

هـ - **الديمقراطية**: التي تعتبر النظام الملائم لصنع القرار السياسي، لأنها النظام الوحيد القائم على سيادة اختيار الأفراد. فلكي يكون الأفراد أقوياء، وحقوقهم مصونة، فإن الحكومة يجب أن تكون مقيدة الصلاحيات بشكل كبير.

هذه الصياغة للمجتمع الأمريكي جعلت منه مجتمعا مفتوحا. كل إنسان يهاجر إليه يستطيع أن ينخرط فيه اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً؛ لأنه مكوّن من جنسيات مختلفة. وجذوره ليست ضاربة في التاريخ. وقد كان إنتاجه الثقافي قابلاً للتسويق بحكم التنوع الذي وجد عليه، فهو بخلاف المجتمع الياباني مثلاً الذي يصعب اختراقه ثقافياً.

ومما ساعد على جعل الثقافة الأمريكية ثقافة العولمة: سيطرة الاقتصاد الأمريكي على جزء كبير من الاقتصاد العالمي، وقوة شركات الإعلان والتسويق في الولايات المتحدة ذات الاتساع العالمي، الأمر الذي مكنها من التأثير البالغ في توجه أذواق الناس عالمياً إلى إنتاجها.

ومما ساهم في انتشار ثقافة العولمة: الترويج لثقافة متدنية قابلة للتسويق أمثال رامبو، وشورازينغر، ومادونا، ومايكل جاكسون. وقد تولت الترويج لهم

شركات هوليوود، وشركات الإعلان الكبرى في نيويورك، فأوجدت لهم أسواقاً عالمية رابحة^(٧).

وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة لا تهتم بالثقافة الرفيعة، بل أولت اهتماماً إلى هذا اللون، ولكن الثقافة الرائجة هي الأجدر بالتسويق.

ومما عمل على نشر الثقافة الأمريكية: استقطاب الكفاءات العلمية من أنكباء طلاب العالم الذين انتسبوا إلى الجامعات الأمريكية التي تزيد عن عشرين ألف جامعة، وهم يمثلون استثماراً إذا قبلوا بالعروض السخية التي تقدمها لهم مراكز البحوث الأمريكية للعمل ضمنها. وفي حالة عودتهم إلى أقطارهم يكونون أحسن مروجٍ لثقافتهم.

والاتجاه الفكري ذو النزعة الأنجلوسوكسونية في الجامعات العالمية بارز الأثر على شتى المستويات المنهجية والفكرية.

ومما روج لثقافة الأمركة حتى نزعت إلى العولمة: انتشارها لدى أوساط الشباب في ثوب عصري، فأقبلت السوق الداخلية للولايات المتحدة الأمريكية على هذا الإنتاج، كما صادف رواجاً في الأسواق الخارجية، فتهافت الناس وخاصة الشباب على المشروبات، والأطعمة والملابس، والموسيقى، والسينما، وحتى الحلاقة الأمريكية «مارينز».

وهكذا فإن أمركة العالم كان حلم بعض الرؤساء الأمريكيين في بداية القرن العشرين، وتجسم في عالم الواقع عند نهايته^(٨).

(٧) «الثقافة العربية في مواجهة المتغيرات الدولية الراهنة»، لمسعود ضاهر، مجلة الفكر العربي المعاصر، السنة ١٩٩٣، ص ٥٧.

(٨) الأيديولوجية السياسية الأمريكية، د. عبدالله جمعان محمد الغامدي، مجلة شؤون اجتماعية، تصدر عن جمعية الاجتماعيين بالإمارات العربية المتحدة، عدد ٥٦، شتاء ١٩٩٧م - ١٤١٨هـ، ص ٨٦.

٢ - نشأة العولمة:

في العقد الأخير من القرن العشرين شاعت ألفاظ «العولمة»، «نهاية التاريخ»، «صراع الحضارات»، «نهاية الأيديولوجيا»، «ما بعد الحداثة»، «النظام العالمي الجديد»، «مجتمع المعلومات» وأكثر هذه الألفاظ شيوعاً «العولمة» وقد شاع استخدامها في السنوات العشر الأخيرة، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينات، لكن بذورها الأولى بدأت في منتصف الستينات ثم اتضحت معالمها في السبعينات، وتسارعت وتأثرت في الثمانينات^(٩).

ولفظ «العولمة» في استعماله حديث، ولكن عناصر الظاهرة ضاربة في القدم، ويرى بعضهم أنها تيار من تيارات الرأسمالية، بدأ منذ عام ١٨٧٠ في بسط هيمنته على العالم، ثم تراجع عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٩ مع حدوث الكساد الاقتصادي الكبير في النظام الرأسمالي، واستمر الأمر إلى الحرب العالمية الثانية.

ثم إن ازدياد العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الأمم وتبادل السلع والخدمات، وانتقال رؤوس الأموال، وانتشار المعلومات والأفكار، وتأثر قيم حضارية بقيم أخرى وافدة. كل مكونات هذه الظاهرة تعرفها الحضارات السابقة، ولكنها بدأت تبرز بصفة واضحة منذ الكشف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر^(١٠).

٣ - عوامل ظهور العولمة:

ساهمت ظروف وعوامل مختلفة في بروز ظاهرة العولمة في هذا الوقت من أبرزها:

(٩) مقال في مفهوم العولمة، للسيد ياسين، مجلة المستقبل العربي (مرجع سابق)، عدد ٢٢٨، بتاريخ ص/١٩٩٨، ص ٤.

(١٠) العولمة والدولة، مقال جلال أمين، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٢٨، بتاريخ ٢/ ١٩٩٨، ص ٢٣.

أ - الثورة التكنولوجية: إن العالم يشهد اليوم فصلاً آخر من فصول التاريخ الاستعماري، تحاول فيه الدول الكبرى - مرة أخرى - السيطرة على الدول الصغرى باستخدام وسائل جديدة. فعندما قامت الثورة الصناعية لم يكن باستطاعتها أن تستمر بغير وجود السكك الحديدية، فقد كانت وسائل النقل هذه هي التي تنقل المواد الخام، - مثل القطن والفحم، - من الدول التي كانت راضخة للاستعمار، إلى المراكز الصناعية، حتى يمكن لعمالها أن يعملوا، ولمصانعها أن تنتج.

كما كانت تلك الوسائل - أيضاً - هي التي تنقل المنتجات الصناعية إلى الأسواق في المستعمرات. وبفضل المخترعات الصناعية كالمحرك البخاري وغيره صارت هذه الدول صناعية، وقد أحكمت إمبراطوريات المجتمع الصناعي قبضتها على الدول التي استعمرتها باستنزاف مواردها من ناحية، وتحويلها إلى أسواق للبضائع الأوروبية من ناحية أخرى. وكانت وسائل النقل في ذلك الحين - من سكك حديدية وبواخر - الشرايين التي بدونها لم يكن متاحاً للاقتصاد الاستعماري أن يزدهر.

ويعيد التاريخ نفسه في مجتمع المعلومات الراهن، وإن كان قد حدث تغير جذري، فبدلاً من المصانع التي كانت أهم أركان المجتمع الصناعي، نجد الآن بنوك البيانات تعد اليوم أهم أركان المجتمع الجديد. وبدلاً من السكك الحديدية والبواخر، نجد الآن الأقمار الصناعية ووسائل المواصلات الحديثة، ووسائل جمع البيانات وتوزيعها تعد أهم أسسها. ويتم ذلك بسرعة خارقة وعلى نطاق واسع لم يكن يحلم به أحد عند قيام الثورة الصناعية.

وهكذا فإنه يزيد من تعزيز علاقات التبعية التي كانت قائمة من قبل. فهناك قلة تنتج وكثرة تستهلك، صفوة ترسل، وجمهرة تتلقى، جماعة تزاد غنى وتقدم، وجماعات تزاد فقراً، وتخلفاً. ولم يقتصر هذا على المجال الاقتصادي وحده، بل امتد إلى الجانب الثقافي أيضاً. فقد ساعدت وسائل الاتصالات الحديثة على تغيير أنماط الحياة في الدول الصغيرة وعلى تهديد ثقافتها، وأفضت أوجه التقدم التكنولوجي خلال السنوات الأخيرة الماضية

إلى نمو الصناعات الثقافية نمواً سريعاً، وأياً كان تنظيم هذه الصناعات فإنها تقوم بدور هام في نشر السلع الثقافية، غير أنها في أنشطتها الدولية كثيراً ما تتجاهل القيم التقليدية السائدة في المجتمع، وتبث فيه تطلعات لا تتفق مع الاحتياجات الحقيقية لتنميته، كما جاء في التقرير الختامي للمؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي نظّمته اليونسكو في المكسيك عام ١٩٨٢. وهكذا شكلت المزوجة بين التكنولوجيا الحديثة واحتكارها من قبل عدد قليل من الدول الصناعية ونفوذها غير المحدود في الدول النامية إلى ظواهر أصبحت تسمى: «الاستعمار الإلكتروني»^(١١).

ب - الشركات متعددة الجنسيات: الشركات متعددة النشاط، أو الشركات دولية النشاط: يستخدم هذا المصطلح بشكل عام لوصف ظاهرة عابرة للدول. ويرى بعضهم أنها ظهرت عند منتصف الستينات^(١٢)، ويرى بعضهم الآخر أن الظاهرة ليست جديدة، بل تعود إلى عصر الاستعمار التقليدي^(١٣)، حيث برز عدد من الشركات تقوم بعمليات الإنتاج والتوزيع في أكثر من دولة.

ولكن العصر الحديث شهد توسعاً في هذه الشركات كميّاً وكيفيّاً، وسرعان ما تحولت هذه الشركات إلى دولة لا تحتاج إلى وطن، وإلى إمبراطوريات لا تحتاج إلى أقاليم، فكانت الإمبراطوريات الحديثة مجالاً لا مقر له ولا عاصمة ولا أرض ولا شعب، وصعدت إمبراطورية البترول فعلاً، ثم إمبراطورية السلاح، ثم إمبراطورية الطيران والإلكترونيات، ثم إمبراطورية الفضاء، وإمبراطورية الأقمار الصناعية، فالإمبراطورية العسكرية للصناعات الحربية.

(١١) الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، حمدي قنديل، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، إدارة الثقافة تونس ١٩٩١، مقال الإعلام العربي، ص ٩.

(١٢) مقال في مفهوم العولمة، للسيد ياسين، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٢٨، بتاريخ ٢ / ١٩٩٨، ص ٤.

(١٣) النظام العالمي الجديد والقضايا العربية الراهنة، محمد سعيد طالب، طبعة أولى، الأهالي للطباعة، دمشق ١٩٩٤، ص ٢٣.

هذه الشركات متعددة الجنسية مصممة على جعل السوق العالمية خاضعة لقوانينها الاحتكارية التي تملئها مصالحها، والسياسات الاقتصادية لتحالف الدول الرأسمالية، مدعومة بالقوة العسكرية وبالإمكانات الإعلامية الهائلة، وبأجهزة الاتصالات الحديثة، ودوائر الاستخبارات العريضة في أعمال التخريب والتجسس. وبهذه الوسائل يتم خرق القوانين الاقتصادية، وسيادة الدول بدلاً من المدافع، والسفن الحربية التي كانت تستخدم لفتح العالم ونهبه في فترة التراكم الرأسمالي البدائي^(١٤).

ج - فائض الإنتاج في الدول الصناعية الكبرى بدرجة متطورة، والضرورة القصوى إلى تسويقه خارج حدود هذه الدول، وانحسار المد الاستعماري، جعل تصدير السلع يتقلص إلى المستعمرات، أو قد يتقلص في المستقبل، فكان لا بد لهذه الدول الكبرى من التفكير في منهج إنتاج يفرض نفسه على الدنيا بشتى الطرق، ويروج سلعه وفائض إنتاجه، فكان منهج العولمة.

د - تنقل رؤوس الأموال، بحثاً عن الاستثمار، وجرياً وراء الربح المضمون، فتطلب ذلك بحثاً عن الأسواق العالمية، حيث اليد العاملة الرخيصة في آسيا وأفريقيا. وبغية تنقل راس المال تنقلاً حراً، لا تحدّه حدود، ولا يقيد بقيود إدارية روتينية قاتلة. وحيثما وجد الربح في اي بلد من بلدان العالم حلّ فيه. فالعالم عبارة عن قرية صغيرة، انعدمت فيه المسافات وسقطت القيود الجمركية والإدارية المجحفة.

٤ - أهداف متناقضة:

تهدف العولمة إلى خلق ثقافة عالمية كونية تتقارب فيها الميول والأفكار، ليسود التفاهم بين بني البشر، وليسود السلام العالمي، تلك هي الأهداف المعلنة، والتي يحاول مفكرو العالم الرأسمالي تمريرها من خلال المنظمات الأممية، بدعوى السلم والتفاهم والتعاون.

(١٤) العرب والعالم، مجموعة بحوث علمية تنسيق د. علي الدين هلال، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة أولى، ص ٥٤.

ولقد ازداد التفكير في النظام العالمي الجديد إثر الأحداث الكبرى التي هزّت الإنسانية، فإثر الحرب العالمية الثانية - وما خلفته من دمار رهيب في أوروبا - تنبّه العالم الغربي - وخاصة الولايات المتحدة - إلى خطر توقف التطور الإنتاجي في أوروبا، وانعكاسات ذلك على مناعة الأيديولوجيا الرأسمالية، فقام مشروع مارشال يبعث النهضة الأوروبية، ويربط بينها وبين دول المحيط الأطلنطي، ولكن هذه الخطوة نحو العولمة تغير مجرى سيرها بظهور وحدات إقليمية - في أوروبا وأمريكا، وحتى آسيا وأفريقيا - عملت على تحصين نفسها، فكانت انتكاسة لخطّة العولمة المؤسسة على الحرية في المبادلات، وإزالة الحواجز، وتوحيد آليات السوق. وبرز التفكير في النظام العالمي الجديد في السبعينات، حيث عقدت جلسة استثنائية للأمم المتحدة عام ١٩٧٤م أملاً بالوصول إلى حلول نهائية للمشكلات الإنسانية العالمية، وذلك من أجل صيانة السلام العالمي المهدد بالخطر، وقد اعترف بأنه:

- لا أمل بالوصول إلى حلول صحيحة في ظل الأنظمة المتضاربة السائدة في العالم اليوم.
- العالم قد تقدم اليوم: فكرياً، علمياً، وتكنولوجياً، وزالت بينه الحدود.
- ينبغي التفكير في وضع نظام اقتصادي عالمي حديث، تراعى فيه جميع المعطيات الجديدة، ووفقاً لقواعد جديدة عالمية للمجتمع البشري الجديد.
- وعقدت الأمم المتحدة اجتماعاً ثانياً عام ١٩٩٥م، وتقرر إحالة الموضوع إلى الجهاز العلمي والتربوي للأمم المتحدة (اليونسكو)، لتضع مبادئ هذا النظام وقواعده الجديدة، وقد صدرت توصيات اليونسكو كما يلي:
- أ - وجوب مراعاة وحدة البشرية من غير تمييز بينها في الحق بالحياة الكريمة.
- ب - وجوب مراعاة وحدة مصالحها دون تمييز بينها.
- ج - وجوب وحدة التخطيط لاقتصادها من غير تمييز لفريق على حساب فريق آخر.
- د - وجوب العدل بينها على أساس من الحق والقانون.

هذه التوصيات - عند التأمل فيها - مبادئ براقية، وشعارات أخاذة، ولكن تطبيقها يقتضي العدل وعدم ازدواج المعايير عند التطبيق. وما برز في سلوك دول الشمال يتنافى وتلك الأهداف النبيلة.

فلقد عمدت أجهزة العولمة إلى احتكار التكنولوجيا الحديثة والمتقدمة جداً، وتصدير التقنيات القديمة، وبخاصة ما يتعلق منها بالصناعات الاستهلاكية التي تعيد استيراد منتجاتها بأرخص الأسعار، وبأقل التكاليف، وتقوم بتوطينها في مناطق مأمونة من العالم الثالث، حيث تكاليف الإنتاج رخيصة، واليد العاملة متوفرة وماهرة، وبشروط مجحفة، فلا يباع الإنتاج خارج السوق المحلية إلا بإذن من الشركات الكبرى التي ركزتها^(١٥).

ومن مظاهر التناقض في نظام العولمة: التحكم بحركة رأس المال من خلال حركة الأسواق المالية والعالمية، والمضاربات على العملات الأجنبية، والذهب، والتلاعب بأسعار المواد الأولية، والمواد الخام، والطاقة، وبخاصة النفط، والمعادن الاستراتيجية، وأسعار السلع الصناعية، للحفاظ على معدل التراكم الرأسمالي على مستوى عال في الدول الصناعية المتقدمة، وحرمان الدول الفقيرة من تطوير صناعتها وقدراتها الذاتية.

إن استعمال أهداف نبيلة لتمرير سياسة العولمة أمر بات مكشوفاً، واستخدمت في ذلك الرأسمالية العالمية استراتيجية جديدة، تركز على رفع الشعارات البراقة للتنمية، غير أن جوهر أهدافها ومصالحها الحقيقية، هو جعل العالم كله تحت سيطرة الرأسمالية العالمية، خاصة من خلال تنويع الوسائل والشعارات، وبذلك تبرر التدخل في الشؤون الداخلية للدول، واستخدام الضغوط الاقتصادية، وشن الحروب بدعوى حماية حقوق الإنسان وحماية الديمقراطية^(١٦).

(١٥) المرجع السابق، ص ٨١.

(١٦) الكونية والأصولية وما بعد الحداثة أسئلة القرن الحادي والعشرين، السيد ياسين، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦، ص ١٩٤.

٥ - آليات العولمة:

ومن أهم آليات العولمة:

أ - الثورة الثالثة المعلوماتية التي تعيشها الإنسانية بعد الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية، فالفضائيات، وشبكة الكابلات، والإنترنت، والحاسبات الإلكترونية، ووسائل الاتصالات المختلفة، ساهمت في ظاهرة العولمة.

وقد وقع استنباط ما يسمى بالتبادل الإلكتروني للمعلومات، ويعرف بأنه: إتمام نقل المعلومات الإدارية والتجارية بين الحاسوب الآلي لأطراف التبادل التجاري، وذلك باستخدام شكل نمطي متفق عليه للمعلومة الدالة على الحركة، وأن الهدف النهائي هو إتمام المعاملات من دون أوراق (Paperless)، ولكن بصورة قانونية صحيحة، ومن إسرار عمليات التخليص على البضائع في الموانئ وعبر الحدود، وتقليل الوقت الذي تقتضيه هذه البضاعة أثناء عملية النقل، مع ما يترتب عليه من تقليل النفقات، مما يعني إعطاء دفعة هائلة لاستخدام الحاويات في أعمال النقل بصورة عامة، والنقل المتعدد الوسائط بصورة خاصة^(١٧)، ووصول المعلومات بهذه السرعة يساعد إلى حد كبير في حركة اقتصاد العولمة وإسراع الإنتاج وانخفاض كلفته.

وهذه الوسائل تكمن قدرتها في جمع المعلومات، والبيانات، وتصنيفها وتخزينها، واسترجاعها، وبثها بأكبر كميات ممكنة، وعبر أبعد مسافات محتملة، وبين أضخم عدد ممكن من المستهلكين.

وهذه الشبكات المعلوماتية تتجمع في أيد قليلة تتصرف فيها كيفما شاءت، تارة للاحتكار، وطوراً لرصد المعلومات والإعلان، بهدف الهيمنة على الأنواق والسلوك الاستهلاكي للإنسان. وهكذا أصبح كل ما هو غربي مرغوباً فيه، وكل ما عداه مرغوباً عنه، وهذا الأمر يؤدي إلى انحراف في السلوك الاستهلاكي، إلى جانب تأديته إلى مشكلات اقتصادية واجتماعية.

(١٧) الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة، بحث أحمد فرحات، نشر مركز الوحدة العربية، لبنان، ص ٢٩٦.

ولعل الأخطر أن هذه الوسائل تسهم في ترويج قيم وعادات ومعايير حياة غربية تمهد لقبول المنتجات الغربية، الأمر الذي يمثل خطراً على الثقافة والقيم داخل الدول النامية^(١٨)، وأن دكتاتورية «الصورة» بدل الحرف تشكل خطراً على الوعي البشري، لأنها تتسرب عبرها شتى المؤثرات المختلفة لدى الكبار والصغار على السواء.

ب - الثورة العلمية بمختلف العلوم التي سجلت أعلى الابتكارات لفائدة العولمة. فلقد ساهم الاقتصاد الرأسمالي بدراسة العملية الإنتاجية في كل أطوارها، وحقق إنجازات للبناء على أسس أكثر علمية، بعيداً عن عفوية السوق وتقلباتها، وفوضى العرض والطلب.

كما أن تقدم علوم أخرى مساعدة وبخاصة الأبحاث السوسولوجية، وعلم السلوك، وعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، وما أنفق على البحوث الاقتصادية في مجال التعرف على آليات السوق، وما يتعلق بالاستهلاك والتوزيع، ودراسة فترات الازدهار والانكماش والركود، والأزمة وآثارها على الدخل الفردي والاجتماعي. كل ذلك أدى إلى تحسين الأجهزة والمؤسسات الاقتصادية، والأسواق المالية، وتجنب فوضى الإنتاج، وتجاوز فترات الركود. وإذا كانت الثورة المعلوماتية هدفها الرصد فإن أهم آليات العولمة دمج* الشركات الصناعية المتعددة الجنسيات، لتكون عملاقة، وحتى لا تستطيع

(١٨) بحث المجتمع الإسلامي وقضية البث المباشر، نبيل السمالوطي، مقدم إلى ندوة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية أقامتها جامعة الإمارات بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية خلال الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧، ص ٤٧٠.

(*) دمج أو اندماج (Merger): توحيد منشأتين أو أكثر في شركة أو مؤسسة، وهو توحيد يمكن أن يكون طوعاً أو قسراً، وشهدت عمليات الاندماج طفرة واسعة في التسعينات من هذا القرن، حيث أدى إلى قيام مؤسسات عملاقة على مستوى العالم، سواء على صعيد شركات الطيران، أو على صعيد شركات الاتصالات، أو على مستوى صناعة السيارات وسواها. ويهدف الاندماج إلى توفير النفقات من ناحية، وإلى تحقيق أكبر قدر ممكن من السيطرة والقدرة على المنافسة، والاندماج قد يكون رأسياً يهدف إلى تنسيق السياسات الاقتصادية بين منشأتين تكملان بعضهما البعض مثل الصناعات النفطية، أو أفقياً بين منشأتين تقدمان السلعة نفسها.

شركات العالم الثالث الصغيرة الوقوف في وجهها، وهذه الشركات الصناعية الكبرى أكثر من ٤٠٠ شركة، تملكها الدول الصناعية: (الولايات المتحدة، اليابان، ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، وكندا)** وتمتاز بمستوى إنتاج صناعي جيد، ورخص في الأسعار، تنفق على تطويرها ٣٤٥ مليار دولار. وإذا ما غزت سلعها أسواق الدول الضعيفة سيوجه الناس إلى سلعها، وسيؤدي ذلك إلى إفلاس المؤسسات الوطنية الصغيرة، وأما المؤسسات المالية فالاستثمار فيها ستركز على دول العالم الثالث، وسيحكم رأس المال في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وأغلب المؤسسات المالية تعود ملكيتها إلى الدول الصناعية السبع الكبرى، وأبرز الأمثلة لاندماج الشركات العملاقة في الولايات المتحدة: الاندماج الذي جمع مؤخراً ما بين شركتي «البوينغ» و«لوكهيد» العملاقين في حقل الطيران.

وفي المؤسسات المالية يتضح المثال باندماج Travelers International مع Citicorp من خلال صفقة قدرها ٨٠ مليار دولار أمريكي. وكذلك قيام مؤسسة مالية أخرى كاندماج Nations Bank مع Bank America من خلال صفقة قيمتها ٦٠ مليار دولار، وأمثلة الاندماج بين الشركات الضخمة والبنوك العملاقة والشركات الصناعية صارت لا تحصى في عصر العولمة.

ج - استخدام المؤسسات النقدية الأممية لأغراض العولمة، وإن السيطرة فيها تامة: إدارة، وتمويلًا للرأسمالية الجديدة، التي تعمم قيم الاستهلاك الغربية، وتملي الشروط الصعبة، لتقديم القروض، وتحدد سعر العملات الوطنية، وتتدخل في الشؤون الداخلية للدول، بما يؤدي إلى الثورات أحياناً (ثورة الخبز في كثير من البلاد العربية)، وهذه المؤسسات المتمثلة في صندوق

(**) في مؤتمر السبعة الذي عقد بلندن في ١٥-١٧ تموز ١٩٩١ صدر بلاغ عن الدول السبعة تضمن كيف تدار الأزمات العالمية. وهذه ولادة العولمة، وقد وصف الصحفيون المؤتمر بأنه مجلس إدارة العالم.

النقد الدولي*، الجات** ومنظمة التجارة العالمية*** لها منهج مفروض على جميع دول العالم في قبول أيديولوجية اقتصاد السوق، وما يتبعها من خصخصة بعض المؤسسات الصناعية، ورفع إشراف القطاع العام عليها، وتسريح العمال الزائد إلى البطالة، ورفع أسعار بعض المواد الضرورية التي كانت تحظى بالدعم المادي من صندوق التعويض الذي يهتم بمساعدة الطبقات الضعيفة في تعديل بعض أسعار المواد المرتفعة.

(*) صندوق النقد الدولي (IMF): تأسس في جويلية ١٩٤٤ وياشر نشاطه في مايو ١٩٤٦ بمشاركة ٣٩ دولة وبلغ أعضاؤه الآن ١٨٢ دولة. وله وظائف متعددة منها:
أ - يساهم في رسم سياسات الدول الاقتصادية، ب - يمنح القروض للدول التي تعاني من مشاكل مالية، ج - يتدخل في الخطط التنموية.

(**) الجات (G.A.T.T): الاتفاقية العامة للتعريف الجمركية. وقد بدأ العمل على وضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي تهدف إلى توفير مناخ دولي مستقر، ووضع آلية لتحرير التجارة الدولية تؤدي إلى زيادة التبادل التجاري وتشجيع الاستثمار وخلق فرص عمل، وعلى سبيل المثال فإن أية دولة عضو في «الجات» مطالبة بالسماح بحرية العبور عبر أراضيها للبضائع المصدرة أو المستوردة من دولة أخرى عضو في الجات. ولكن في الوقت نفسه من حق أية دولة عضو في الاتفاقية فرض رسوم خاصة لمكافحة الإغراق، إذا شعرت أن دولة أخرى تحاول إغراق أسواقها بمنتجات تباع بأقل من أسعار التكلفة أو بأقل من الأسعار العادية في البلد المنتج. ومن حق الدولة العضو أيضاً فرض تعريف جمركية لحماية صناعاتها الوطنية مع مراعاة عدم الإضرار بالمنافسة الحرة، وهو ما يمنع الدول الأعضاء من فرض رسوم جمركية تزيد على ما هو متفق عليه. وبالاتفاقية كثير من الشروط الخاصة بالدول النامية. (عن ورقة تعريفية إصدار جامعة الإمارات العربية المتحدة - كلية الإدارة والاقتصاد).

(***) منظمة التجارة الدولية (W.T.O): قامت استكمالاً لاتفاقية الجات، وياشرت عملها في العام ١٩٩٥م في جنيف بسويسرا، وقد أضافت إلى اتفاقية الجات أهدافاً جديدة تشمل تجارة الخدمات إلى جانب تجارة السلع، تعمل على تسوية النزاعات التجارية بين الأعضاء ومساعدة وتدريب الدول السائرة في طريق النمو، وتتخذ قراراتها بالإجماع أو بالتصويت، وآخر المنازعات التي حسمت فيها: قضية الموز التي قامت بين أمريكا والاتحاد الأوروبي، وصدر الحكم فيها لفائدة أمريكا، وتتكون قوانين المنظمة من - ٢٨ - اتفاقية تمت الموافقة عليها بين الدول المشاركة فيها (عن ورقة تعريفية، إصدار جامعة الإمارات العربية، كلية الإدارة والاقتصاد).

٦ - مجالات العولمة وآثارها:

وتشمل العولمة: الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفردية، والثقافية.

أ - العولمة السياسية:

وأبرز مظهر للعولمة في الميدان السياسي ما حدث من تغيير في قوة الدولة، إذ بدأ دورها يتضاءل، وصار الخضوع لرؤوس الأموال أمراً تقتضيه الحكمة السياسية، ويستوي في ذلك جميع الدول، بل لقد صار المضاربون يهزمون الحكومات ومصارفها المركزية، ورأس المال يتحكم في الخيارات، ويقرر القرارات قبل أن تصل إلى الدولة، وصارت الشركات العملاقة متعددة الجنسيات - تدريجياً - تحل محل الدولة، وقفزت فوق أسوارها، بل أخذت هذه الأسوار تفقد قيمتها فعلياً، ولقد تراجع دور الدولة من حيث التدخل المباشر في عملية الإنتاج التي أصبح من المناسب تركها لقرارات أرباب العمل، كما تراجع دور الدولة في حماية منتجها من المنافسة الخارجية، وترك أمر التجارة الدولية حرة.

ولقد صارت الدولة في العالم الثالث ترخي قبضتها شيئاً فشيئاً على الاقتصاد، تحقيقاً لمصالح الشركات، فالأسوار الجمركية يجري هدمها، ونظام التخطيط يتم إلغاؤه، والاشتراكية تصبح شعاراً لا غير، وإعادة توزيع الدخل وما يعطي من دعم للسلع الضرورية صار يتعارض تعارضاً صريحاً مع التنمية في مفهوم العولمة^(١٩)، وكاد أمر الدولة يكون صورياً، انسحبت من كل المؤسسات العامة وخاصة الخاسرة، بدعوى هيكلة الاقتصاد وترشيده، والدولة لا ينبغي أن تملك، بل تشرف وتشجع. وإذا كانت بعض الشعوب لا تعطف على «الملك العام» أي «ملك الدولة»، وكان ذلك حاملاً لبعض رجال الاقتصاد على التفريط مع أنه كان ينبغي التريث لا ابتكار صيغة اقتصادية، تصلح من شأن هذه المؤسسات، خاصة مؤسسات قطاع الخدمات، ولقد نجحت الصين في هذا

(١٩) مقال العولمة والدولة، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٢٨ بتاريخ ١٩٩٨/٢، ص ٣٠.

التدرج في الانتقال إلى اقتصاد السوق، فهي تحاول الانتقال في حكمة وتأنٍ ودراسة علمية بعيدة عن المحسوبية والحزبية. إن مفهوم الدولة القومية، ذات السيادة والأسوار الحديدية قد ولى، وإننا ينبغي أن نستعد إلى عهد ما بعد الدولة القومية، في ظل كونية عالمية جديدة، لا تصبح فيها للحدود القداسة التي تمتعت بها منذ نشوء الدولة القومية الحديثة. وبالجمله فقد اهتز المفهوم التقليدي لسلطة الدولة، ولم تعد لها تلك السيطرة القوية التي سادت لها منذ نشوئها.

ومن آثار العولمة السياسية: فرض نظام التعددية الحزبية، والاعتراف بالمعارضة، والسماح لها بممارسة نشاطها، والدول التي لا تأخذ بهذا المبدأ محاط بها الشك والارتباب، وتصنّف تصنيفاً معيناً، وكل معارضة يجب أن يعترف بها النظام القائم لكل دولة، وبمقدار ما يعطي لها من هامش الحرية بمقدار ما تحسب الدولة في عداد الدول الديموقراطية.

وحقوق الإنسان - جوهر القضية في نظام العولمة - جعل لها منظمة دولية، وإقليمية، ومحلية، واستخدمت وسائل الإعلام الغربية لنشر تقارير عن هذه الحقوق في كل دولة، بيد أنها مرسومة بشكل يخدم الأهداف الغربية في السيطرة على العالم، وهذه المنظمات ذات معايير مزدوجة، فدولة تصنف في قائمة المنتهكين لهذه الحقوق، وأخرى يتغاضى عن تجاوزاتها ضد الإنسان. غير أنه لدى بعض منها حياد وموضوعية إلى حد بعيد.

ومن مظاهر هذه العولمة: محاربة الإرهاب، بيد أن ما يعتبر إرهاباً في سلوك دول العالم، يعتبر في نظر دول أخرى دفاعاً عن النفس.

وتلتزم الدول في نظام العولمة بنزع السلاح الاستراتيجي، ولكن هذه الدول تحدها الولايات المتحدة، فتبرز من تبرز، وتخفي من تخفي، مثل إسرائيل، فالأسلحة الجرثومية والنووية والكيميائية تخضع لرقابة دولية دقيقة، غير أن المعايير فيها مزدوجة.

وتمارس حرية الأديان في العولمة بقوة، وكل دولة لا ترفع شعار احترام

تعدد حرية الأديان لا ترقى إلى مستوى الدول الملتزمة بالمواثيق الدولية. لكن ازدواج المعايير في مثل هذه القضايا منهج متبع دائماً، فالانحياز للأقليات المسيحية على حساب المسلمين أمر بارٍ للعيان، بل إن الإسلام - كدين - يشكل الخطر الأعظم والعدو الذي تجب مواجهته بعد انهيار معسكر الاتحاد السوفيتي ذي العقيدة الشيوعية، حسب رأي قادة النظام العالمي الجديد.

والمحافظة على البيئة أمر ظهر مع العولمة، فلقد شهد حزيران ١٩٩٢، انعقاد قمة الأرض في ريودي جانيرو، وفيه دعوة للمحافظة على البيئة، أخذت بها أكثر من ١٠٠ دولة، وأنشئت لذلك الوزارات، وسميت باسم البيئة الشوارع والساحات. والظواهر البيئية لا تعرف الحدود، وخطرها يتهدد البشرية، مثل بعض الغازات: كثاني أكسيد الكربون، وغاز سي.أف.سي CFC، وبعض الملوثات، التي يمحق خطرها الإنسان والحيوان في البر والبحر.

هذه المشاكل الكوكبية كانت محط اهتمام الدولة القطرية، ومظهر عنايتها، وهو أمر إيجابي في عصر العولمة، حمل كثيراً من الدول على إقامة ضوابط محافظة على البيئة.

ب - العوامل الاقتصادية:

إن العالم اليوم يشهد تطورات جذرية ومتسارعة في الساحة الاقتصادية، أدت إلى حدوث تغييرات هامة ذات آثار بعيدة المدى، تتمثل في اتجاه معظم الدول لتبني سياسة الاقتصاد الحر، وبروز آفاق جديدة لعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتحرير التجارة، وعملقة المؤسسات الاقتصادية، وتعزيز قدرتها الإنتاجية والتصديرية من خلال الميزة التفضيلية والتخصص، وإعادة الهيكلة والدخول في تحالفات استراتيجية، واقتحام مجال التجارة الإلكترونية.

ونتيجة لذلك وصل حجم المعاملات العالمية بين الدول والمؤسسات والمنشآت إلى مستوى لم يسبق له مثيل، كما ازداد تشابه السياسات الاقتصادية الاساسية للدول في إطار بيئة تجارية عالمية، تحمل في طياتها فرصاً ومخاطر في آن واحد.

هذا النظام الاقتصادي الجديد عالمي ومتشابك، عالمي في طبيعته وتكوينه، تزول فيه الحدود السياسية والجغرافية، ومتشابك في أنظمتها ودوائرها، تتوافر فيه للإنسان - أينما كان وفي أي وقت كان - جميع أنواع السلع والخدمات من خلال شبكات المعلومات، ولأنه نظام اقتصادي يمتد ويتطور ويتشابك فإنه يقوم على المعارف والمعلومات، بل يتسم بتزايد القيمة الاقتصادية للإنتاج الفكري والتقني بشكل متصاعد.

إن العولمة الاقتصادية نتاج الفكر الرأسمالي الذي يقوم أساساً على قدرة رأس المال على الحركة دولياً، ودون عراقيل روتينية، إدارية، أو سياسية تسلطية.

ومن مظاهر العولمة: ظهور الشركات متعددة الجنسيات التي صار لها فائض إنتاج ضخم، ونشاط استثماري واسع، يشمل دولاً متقدمة أو نامية على السواء، كما تتميز هذه الشركات باحتكارها للتقنية الحديثة، وتوجد مراكزها الرئيسية في عدد محدود من الدول المتقدمة صناعياً، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية، ودول أوروبا الغربية، واليابان، وهذه الشركات مسؤولة عن أكثر من ٨٠٪ من الاستثمارات الأجنبية المباشرة على مستوى العالم. وهناك ١٥ شركة من هذه الشركات العملاقة تسيطر على الإنتاج العالمي، تملكها الدول السبع الصناعية الكبرى.

وتعمل هذه الشركات على التنسيق فيما بينها فيما يتعلق بالسياسات الإنتاجية والأسعار والاستثمار، بما يحقق مصالحها، ولا يتعارض مع أهدافها، وتمتاز بنفوذ واسع، يؤديها في ذلك دولها الصناعية التي تضمن لها التأييد والدعم، خاصة إذا تعارضت مع سياسة الدول النامية، فما على هذه الدول الصغيرة إلا الإذعان. وتستغل هذه الشركات العديد من المزايا: أهمها التقدم التقني، والأساليب الإدارية والتنظيمية المتطورة، بالإضافة إلى تمكنها من وسائل الدعاية والتحكم بالأسعار انخفاضاً وارتفاعاً، وتسيطر في الدول النامية على بعض مجالات الإنتاج، وعلى بعض قطاع الخدمات، مثل: المصارف والسياحة، والوجبات السريعة، والمشروبات الغازية، وشركة الماء والكهرباء والغاز.

وأبرز ما تتميز به هذه الفترة: ظهور تكتلات اقتصادية مثل: الاتحاد الأوروبي، ومجموعة الآسيان، واتحاد الدول الأمريكية عدا كوبا، وكل هذه الدول تستشعر خطر الظرف الدقيق، وبخاصة عندما تكون الإنسانية فيه على مشارف أخطار محدقة كالبطالة وفشل التنمية.

ومن مظاهر العولمة الاقتصادية: توظيف المشكلات الغذائية لصالح الهيمنة الأمريكية. ولقد تسللت العولمة الغذائية ببطء منذ السبعينات لنمط من الارتهاق السياسي، كي تكون عواقبه وخيمة على صعيد استقلال الإرادة السياسية. وقد تصطدم قائدة العولمة بحليفاتها من الاتحاد الأوروبي، فلقد لخصت صحيفة نيويورك تايمز الوضع الحالي قائلة: «إن الولايات المتحدة وأوروبا تتنازعان على الموز والطائرات والأبقار، وتعملان معاً لضمان تحقيق السلام في كوسوفو، وتتجادلان في مناقشات حول مستقبل حلف شمال الأطلسي^(٢٠)، وتم الاحتكام في قضية الموز إلى منظمة التجارة العالمية، وصدر حكم المنظمة العالمية لفائدة الولايات المتحدة الأمريكية، فكل شيء في زمن العولمة قد خطط له بدقة، حتى القوانين الأممية لن يفلت منها لا القاضي ولا الداني. ومهندس الحركة الاقتصادية في العولمة البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. إذ تخطط هذه الأجهزة الأممية لاقتصاد الدول النامية، وترسم خياراته - كمبدأ خصخصة المؤسسات الحكومية، وتشبيهاها، وتسريح العمال، وغلاء الأسعار، نتيجة رفع الدعم عن بعض السلع التي تستهلك من الطبقات الضعيفة. والدول التي لا تلتزم بالخط المرسوم لها، تسلط عليها العقوبات الدولية، الاقتصادية والسياسية، وتصنف تصنيفاً خاصاً تعامل طبقه.

ج - العولمة الاجتماعية:

١ - تسميات: من التسميات الشائعة للمجتمع في زمن العولمة: **مجتمع المعلومات**: سمي بذلك لأن أبرز ملمح من ملامح المجتمع الجديد أنه يقوم

(٢٠) نقلاً عن جريدة الخليج، عدد ٧٢٢٣، ٢٠ ذي القعدة ١٤١٩ هـ - ٨ مارس ١٩٩٩ م.

أساساً على نتائج المعلومات وتداولها، من خلال آلية غير مسبقة هي الحاسب الآلي، الذي أدت أجياله المتعاقبة إلى أحداث ثورة فكرية في مجال إنتاج وتوزيع واستهلاك المعارف الإنسانية، ولقد أخذ يتشكل ببطء ما يسمى بالوعي الكوني^(٢١).

مجتمع القرية الكونية الصغيرة: هذه التسمية متفرعة عن الأول؛ لأن الزمن والمسافة لم تعد لهما نفس القيمة التي كانت لهما في الماضي، فأى مكان تستطيع أن تدركه في زمن قصير بفضل وسائل الاتصال. وأى خبر يمكن أن تشاهده في نفس اللحظة التي وقع فيها، ولو كان في أقصى الأرض. ولهذه الوسائل تأثير اجتماعي بالغ.

مجتمع الأغنياء: وقد سمي بذلك؛ لأن النبض الاجتماعي صار بيد رأس المال، ولم يعد بيد الساسة كما كان. ولقائل أن يقول: الأغنياء - أبداً - يؤثرون في المجتمعات على اختلاف مراحل التاريخ. والجواب: أن السبق كان للساسة من ذوي السلطان، وقد تغير الوضع في زمن العولمة، فصار للاقتصاديين من ذوي المال. واندحرت «السلطة» أي سلطة: فلم تعد سلطة الأب كما كانت، وغاب في الغالب «الأب»، كما غاب «المعلم»، و«الشرطي» الذين كانوا يتصفون بالجبروت والقهر. وبالجملية فقد اهتز مصدر كل سلطة في زمن العولمة، بغض النظر عن السلبى والإيجابى في هذا الموضوع.

مجتمع الخمس: مجتمع الخمس الثرى وأربعة الأخماس الفقراء، تشير الدراسات إلى أن النموذج العالمي سيكون ٢٠٪ من السكان يمكنهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام. أما النسبة الباقية ٨٠٪ فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة، الذين لن يمكنهم العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال الخير^(٢٢).

(٢١) الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، السيد ياسين، ص ٣٨.

(٢٢) فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، تأليف هانس بيتر - مارتين وهارلد شومان، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٨، الكويت، ص ٩.

مجتمع ما بعد الصناعة: مرّت الإنسانية بمراحل أدت إلى تفاعلات اجتماعية متميزة، كل مرحلة تميزت عن سابقتها بمميزات شغلت علماء الاجتماع، ومن هذه المراحل:

مرحلة الصيد: وفيها برزت القبيلة بتفاعلاتها الاجتماعية، وقوانينها الفطرية.

مرحلة الزراعة: ثم جاءت بخصوبتها واستقرارها، وما نتج عن ذلك من مدن وقرى، ونشوء الدولة والإقطاع.

ثم كانت **مرحلة الصناعة** وما امتازت به من ابتكار أدى إلى فائض الإنتاج الذي فرض تسويقه البحث عن أسواق كان من نتائجه الاستعمار، ونشأت عن ذلك حركات عمالية، واستشرى رأس المال والإقطاع، فكانت ردّة الفعل متمثلة في أيديولوجيا الشيوعية، ولعلنا ننتظر ردّ الفعل على هذه العولمة التي استشرى فيها رأس المال من جديد، وستكون ردّة الفعل بيد الحضارات القوية، كما تنبأ بذلك صمويل هانتنغتون في الصدام بين الحضارات^(٢٣).

مجتمع ما بعد الحداثة: قام مشروع الحداثة الغربي على أسس، منها: الفردية، والعقلانية والإيمان بفكرة التقدم الإنساني المطرد، والحمية في التاريخ والطبيعة، وهذه التسمية تصدق على المجتمع الغربي، وقد صدرت آراء تناقشها وتعلن تداخلها داخل مجتمعاتها التي نشأت فيها، والآن ينتقل المجتمع إلى مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية، هي مرحلة ما بعد الحداثة.

٢ - الطبقة المتوسطة والعولمة: تشير معظم التحليلات إلى الأهمية الاجتماعية والسياسية لما يسمى بالطبقة المتوسطة في المجتمع (المكونة من كبار ضباط الجيش، والشرطة، وأساتذة الجامعات، والصحفيين، والاقتصاديين، والفنيين الرفيعي المستوى، والموظفين الذين وصلوا إلى المراكز الوسطى^(٢٤)، والحرفيين أصحاب المؤسسات الصغرى ذات الدخل المحترم)، وتعتبر هذه

(٢٣) صدام الحضارات، تأليف وترجمة وجيه كوثراني وآخرين، طبعة أولى، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ١٩٩٥.

(٢٤) التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية في الوطن العربي، د. محمد عبدالفضيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٢٢.

الطبقة الاجتماعية قلب المجتمع، بنبضه تعرف مدى صحته أو علته. والمحافظة عليها تحول دون تجزئة المجتمع إلى أغنياء وفقراء، ثم إن هذه الطبقة تتميز بأهمية كبيرة كقطاع إنتاجي واستهلاكي في الآن نفسه.

وهذه الطبقة الوسطى في المجتمع ستتقلص في الحاضر، وسيندر إفرازها في المستقبل - كما تشير إلى ذلك مختلف الدراسات - وسبب ذلك إفلاس المؤسسات الاقتصادية الصغرى، وطغيان المؤسسات العملاقة التي أنشأتها الشركات المتعددة الجنسيات. وخصخصة القطاع العام، والاستغناء عن كثير من الكوادر الزائدة عن الحاجة، بدعوى ترشيد التصرف. واكتفاء المؤسسات بكوادر عالية الخبرة، والاستغناء عن العادي منها، وانخفاض العملات الوطنية، وغلاء الأسعار، مما يجعل الأجور ليست بذات قيمة، ولا ترفع القدرة الشرائية.

ستجعل هذه العوامل وغيرها الطبقة المتوسطة تنزل إلى الطبقات الكادحة التي تلهث وراء «لقمة العيش» من الصباح إلى المساء، وستهنأ طبقات الأغنياء بما توفر لها من امتيازات، ولا تسعى إلى التغيير، بل تطمح إلى إبقاء ما كان على ما كان حفاظاً على مصالحها.

٣ - الأسرة والعولمة: ومن أبرز المظاهر في زمن العولمة التغير الاجتماعي المتسارع في شتى المؤسسات الاجتماعية على اختلاف أشكالها. وتتبوأ الأسرة منزلة هامة في هذا التغيير الاجتماعي، إذ يعترها ظواهر الانحلال والتفكك. وإذا كان خطر الانحلال قد استشرى في الغرب فإن رذاذاً منه يصيب العالم العربي والإسلامي، وهو مؤهل للازدياد، لأن نسب الطلاق في كثير من هذه البلدان حوالي ٢٠٪. ولهذه الظاهرة أسباب اقتصادية واجتماعية وثقافية، زادت عوامل العولمة استفحالاً.

٤ - المرأة والعولمة: تعمل الشركات المتعددة الجنسية في زمن العولمة على تشغيل المرأة في بلدان العالم الثالث، لأنها رخيصة الأجر، ومطبعة، وغير مكلفة في التأمين الاجتماعي^(٢٥)، وكثير من المؤسسات أقيمت في المناطق

(٢٥) العولمة والتحول المجتمعية في الوطن العربي (ندوة مهداة إلى سمير أمين) تحرير عبدالباسط عبدالمعطي وآخرين، نشر مكتبة مدبولي ١٩٩٩، ص ٢٤٥.

الرفيعة والقروية، وشغلت أعداداً من الفتيات بأجور زهيدة، ورغم ما وفرته هذه الشركات من تحسن اقتصادي في تلك المناطق المحرومة، فإن جني هذه الشركات لأرباح طائلة، يعد مظهراً من مظاهر العولمة لا يخفى على أحد.

ومن مظاهر العولمة: زيادة تشغيل المرأة في الفنادق والمطاعم التي تقدم وجبات سريعة، وفي خدمة المؤتمرات والبنوك والإعلام، وجميعها أعمال ذات أجور منخفضة، وبدون ضمانات اجتماعية في الغالب. وظاهرة تأنيث العمل بارزة ليس في العالم الثالث وحده بل يشمل الأمر العالم المتقدم، خاصة في الصناعات التجميعية، وفي الإلكترونيات، وفي تصنيع الحلي، وتطوير الملابس الفاخرة، وأعمال السكرتارية وغيرها^(٢٦).

وتمثل المرأة الثرية عنصراً بارزاً في ظاهرة الاستهلاك والاهتمام البالغ بأنواع الترفيه السطحية، وامتلاك آخر صيحة من المقتنيات. وانتشار الدعارة بين النساء - وعلى الأخص صغار السن - أمر ملاحظ في عصر العولمة، وهذه الدعارة تتخذ أشكالاً متعددة، سافرة، ومستترة، وتدخل ضمن تجارة الرقيق الأبيض، ذلك التنظيم العالمي الذي يتداخل مع عولمة الجريمة والمخدرات والسياحة^(٢٧).

٥ - الفرد والعولمة: مؤشرات العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تعلي من شأن الفرد على حساب المجتمع وذلك مبدأ من مبادئ الرأسمالية القديمة والجديدة، وهي الأقليات العرقية والدينية. وعلى الفرد أن يعدّ نفسه للمتغيرات الجديدة في عصر العولمة:

- فالمعرفة الإنسانية تتضاعف كل بضع سنين، ومعنى ذلك أن ما تتلقاه من معارف ينبغي تجديده ومتابعته، وقد يقال: إن هذا الأمر مطلوب من كل الاختصاصات، وكذا المتابعة لما يجد، كل في ميدانه، والجواب إن عدم

(٢٦) المرجع ذاته، ص ٢٤٩ وما بعدها.

(٢٧) المرجع ذاته، ص ٢٤٥.

المعرفة قد لا يكسب تطوراً، وأما في عصر العولمة فقد يورث جهالة إذا لم يتابع المرء التطورات الحادثة في ميدانه.

- ويعتمد خريجو المعاهد العلمية على الحكومة والقطاع العام في التوظيف، وخاصة في بلدان العالم الثالث، وفي زمن العولمة قلّت الفرص المتاحة في هذا الميدان، بسبب الاكتفاء الذاتي في كثير من المؤسسات الحكومية، وبسبب ظاهرة الخصخصة التي يلح عليها البنك الدولي، وبسبب فشل سياسات التشغيل في كثير من الحكومات، رغم الجهد المبذول والمحاولات المختلفة للتغلب على صعوبات هذا الأمر. وهكذا ستلعب المنافسة دورها في سوق العمل، والرابح فيها من يعدّ نفسه إعداداً مناسباً.
- وللتطورات التكنولوجية أثرها على أساليب العمل^(٢٨)، فتورة الاتصالات والكمبيوتر أوجدت مجالات جديدة للعمل، وخلقت أساليب مبتكرة، ذلك أن بعض الأعمال قد ينجزها الفرد وهو بمنزله، وقد يحضر بعض الاجتماعات، ويساهم في النقاش فيها مع أصحابها، رغم وجود مسافات شاسعة بينهم.
- ومن مظاهر العولمة: زيادة الفرص الكونية أمام الفرد، ويعني ذلك أن الفرد المتعلم جيداً والقادر على التعامل مع المنظومة الكونية ستكون فرصته في الصعود المهني والاجتماعي والاقتصادي أفضل بكثير ممن لا يمتلك القدرات الأساسية^(٢٩). وهكذا سيظهر تأثير العولمة بصفة أعمق على المستوى الاجتماعي والفردى: معرفياً، واقتصادياً وسياسياً في السنين القريبة القادمة.

د - العولمة الثقافية:

ليست العولمة سيطرة اقتصادية وتكنولوجية فحسب، بل هي سيطرة علمية وثقافية وأيديولوجية، وهي تعني - أيضاً - ذلك التداخل الواضح في

(٢٨) الأصولية والكونية، السيد ياسين، ج ٣، ص ١٨٩.

(٢٩) المرجع ذاته، ص ١٩٠.

الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والسلوك الدولي، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة، أو انتماء إلى وطن محدد، أو لدولة معينة، ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية.

إنها محاولة للحدّ من مظاهر الحضارات الإنسانية، وإزالة خصوصيات كل دولة، وقد تمسك مفكرو الغرب وساسته ورجال الاقتصاد فيه بتنفيذ مخطط العولمة. وقد وجدوا الظروف مهيأة لإدخال العالم وراثته وحضارته تحت سيطرة فكر واحد، وحضارة واحدة. وقد ساعدهم على ذلك هشاشة البنية الثقافية الوطنية، وعدم تغلغل الإيمان الصحيح في نفوس مسلمي اليوم، بالنسبة للعالم الإسلامي.

إن الثقافة الاستهلاكية التي تبثها عشرات الأقمار الصناعية على مئات القنوات التلفزيونية، قد باتت تعمم الثقافة الفردية القائمة على الفلسفة البراجماتية، في تنويع لا مثيل له لثقافة الاستهلاك. وذلك هو الخطاب الأمريكي السائد الذي يبرز من خلال مقولات مهندسي السياسة الأمريكية، مثل «بريجنسكي» مستشار الأمن القومي الأمريكي القائل في منتصف السبعينات: بضرورة تعميم النمط الثقافي الأمريكي، من خلال حسن استغلال جهاز التلفزيون تحديداً، بهدف تعميم «الكوبوي الأمريكي»، والمدرسة الأمريكية في الثقافة التي تقدس رغبات الفرد ونزعتة الاستهلاكية.

وإذا كانت السيادة «لل كلمة» قديماً، فلقد حلت مكانها سيادة «الصورة» حديثاً، وقد قيل: «إن صورة تغنيك عن ألف مجلد من الوصف» وبذلك تشكلت الثقافة الشعبية بعد أن كانت الثقافة مقصورة على النخبة لما للصورة من أثر كبير، وتطلبت صناعة الصورة صناعة ثقافية معدة للاستهلاك الجماهيري تكلف بها الشركات العملاقة متعددة الجنسيات، مرتكزة في ذلك على مبادئ منها:

إشاعة المتعة لدى الفرد والجماعة معاً، وإضفاء مسحة جمالية زائفة على الحياة اليومية، والتركيز على جسد المرأة، واستغلاله لجني الأرباح الطائلة في مختلف الصناعات الإعلامية والثقافة، وقد استخدمت مقولات شائعة في سبيل

الترويج لهذا النوع من الثقافة، منها: الحياة مجموعة لحظات آنية من المتعة، وأن الإنسان لا يعيش مرتين^(٣٠).

إن العولمة الثقافية مفهوم شمولي يشمل اللباس، والنموذج المعتمد، والتسلية، والترفيه وأسلوب الطعام، ويمكنك أن تطلب وجبة طعام «بيج ماك» في أي بلد من العالم تحل فيه في جو ثقافي مصمم خصيصاً لهذا الغرض. كما تشمل العولمة الرسومات، ونمط الذوق، والتفكير، وصياغة الإنسان، من خلال القوة التي تسود العالم «أمريكا» قطبه الأوحده، والخصم والحكم في الوقت ذاته.

إن نظام العولمة سيفرض على العالم الإسلامي خاصة مذهبيته، وحضارته، وعاداته، وتقاليده، بطريقة قسرية، تعتمد الإعلام، والتربية، والاقتصاد، والقوة السياسية، والعسكرية، طريقاً لتحقيق مآربها. وهو يحاول تحويل الحضارات والمجتمعات إلى النمط الغربي، لضمان سهولة السيطرة على هذه المجتمعات، وامتصاص مواردها الطبيعية، اعتماداً على القوة العسكرية والإعلامية والسياسية الاستراتيجية، ذات الأبعاد الخبيثة المتعددة.

إن ثقافة الاستهلاك ترسم من قبل الكليات والمجامع العلمية حتى وصلت إلى مرتبة العلم، وقام أصحاب الثروات والقائمون على الإنتاج بإيجاد تحالفات مع الجامعات والكليات الرائدة، التي بدأت بتعليم التجارة وإدارة الأعمال في كليات جديدة استحدثت لهذا الغرض. ولقد اعتمدت الثقافة الجديدة - برمتها - على خلق الطلب على السلع، من خلال تحفيز رغبة الناس واستثارتها. وتحفيز الرغبة لا تحده حدود، فإذا ما تم إشباع رغبة ما، فإنها ستأتي برغبة أخرى معها^(٣١)، وكل الأجهزة العلمية والإعلامية تجعل من السلعة صنماً تروج

(٣٠) مقال «الثقافة العربية في مواجهة المتغيرات الدولية الراهنة»، مقال مسعود ضاهر، مجلة الفكر العربي المعاصر، سنة ١٩٩٣، ص ٥٦-٥٧.

(٣١) نذر العولمة عن كتاب باللغة الإنجليزية لعبدالحى زلوم، سلسلة مقالات بجريدة الخليج أسسها كريم عمران وعبدالله عمران سنة ١٩٧٠ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة، العدد ٧٢٣٧، السبت ٢٥ ذي القعدة ١٤١٩ هـ - ١٣ مارس ١٩٩٩ م.

للاستهلاك، تزيينه، ترفعه لمرتبة العبادة، وتعمل على تفريغ الروح من كل حس جمالي، والذهن من كل ميل نقدي^(٣٢)، يقول أحد الكتاب الأمريكيين: «إن النزعة الاستهلاكية هي المحرك الرئيس الذي يجعل الجميع يحتسون القهوة «الكابيتشينو» ويرشفون المياه المعدنية «بيريه»، بينما يؤثثون منازلهم من إنتاج مصانع «إيكيا» السويدية، ويتذوقون طعام السوش الياباني، ويرتدون جميع ملابس شركة الألوان المتحدة «بنيتون»، ويتذوقون الاستماع إلى موسيقى الروك أند رول الأمريكية والإنجليزية، وهم يقودون سيارات هيونداي الكورية في طريقهم إلى مطاعم ماكдонаلدز»^(٣٣).

ويضيف «من بين الماركات الأكثر انتشاراً في العالم - والبالغ عددها أربعين ماركة مسجلة - نجد كوكاكولا، وشركة آي بي إم للكمبيوتر، وشركة سوني، وسيارات البورش الألمانية، ومأكولات ماكдонаلدز، وسيارات هوندا، ومنتجات شركة نستله، وقد تم تحديد هذه الشركات بناء على استفتاء اشترك فيه ثلاثة آلاف مستهلك من تسع دول، وكما يقول رئيس الشركة التي قامت بالبحث: إن من بين الأربعين منتجاً أو شركة الأكثر انتشاراً وشهرة وتقبلاً في العالم، نتبين أن ١٧ شركة كانت أمريكية، بينما كانت أربع عشرة شركة أوروبية، وتسع شركات يابانية»^(٣٤)، وحصة الولايات المتحدة كما يتبين تضاهي ٥٠٪ من عدد الماركات الأكثر شهرة في العالم، كما أن مبيعات مطاعم ماكдонаلد في العالم كله فاقت ما يربو عن ١٦ بليون دولار سنة ١٩٨٨، وكانت نسبة ٢٩٪ من هذه المبيعات خارج الولايات المتحدة^(٣٥).

لقد تم صياغة الثقافة الاستهلاكية عبر ثورة الاتصالات، وثورة الإنسان الآلي، وعصر الكمبيوتر والاكتشافات العلمية المذهلة في جميع حقول المعرفة،

(٣٢) الثقافة والاستهلاك، نشر دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، طبعة أولى ١٩٩٤، ص ١٦٠.

(٣٣) المرجع السابق.

(٣٤) الثقافة والاستهلاك (مرجع سابق)، ص ١٦١.

(٣٥) المرجع السابق.

ولكنها ثقافة شهوانية تملأ الفراغ، وتقدس البهرج المادي الزائف، ولا تهتم بقيم خالدة يجسمها الفن أو يقدسها الدين.

٧ - الموقف من العولمة:

السؤال: ما الموقف من العولمة هذا الخطر الداهم؟ وهل هي أمر حتمي؟ وهل لها إيجابيات أم سلبياتها تغطي على كل شيء؟

في العولمة جوانب حتمية لا سبيل إلى الفرار منها، لأن تقنياتها تقتحم الأسوار العالية، وتتسرب من بين الشقوق. والقيم عندما تتسرب لا تدفع إلا بقيم أقوى وأرسخ. يقول أحد المفكرين: «إن كل جهد الغرب في القرنين الأخيرين كان مبذولاً لخلق الإيمان بالغرب، وعدم الإيمان بالذات، حتى تغدو الحضارة الغربية حالة طبيعية تقريبا، من يتصف بها فهو إنسان طبيعي، ومن ينحرف عنها فهو غير طبيعي وشاذ»^(٣٦).

وفي العولمة إيجابيات تتجلى في الانفتاح الاقتصادي، والتعاون التجاري بين الدول، وسهولة حركة رأس المال بعيداً عن القيود التي كانت تفرضها الدول. ومن القيود المفروضة ما يثبط الهمم، ويبعث على القلق والكلل، وقد انصرفت جهود تجارية واقتصادية عن كثير من المشاريع بسبب الروتين الإداري الذي كان. أما الآن فقد أدركت كثير من حكومات العالم الثالث ذلك فيسرت عقبات كثيرة.

ومن إيجابيات العولمة: أضحى المواطن في بلداننا متحرراً من قيود الإعلام الرسمي، وصار يجد أمامه موجات وتدفقات من الإعلام العالمي، مما يسهم في تنمية معارفه ومداركه، وتطوير رؤيته تجاه التغيرات في مختلف مناطق العالم.

(٣٦) العودة إلى الذات، علي شريعيني، طبعة لبنان، ص ٣٠.

ومن إيجابيات هذه الموجة الكونية: سهولة الاتصال، وانخفاض التكلفة في نقل الأخبار، ولذلك آثاره السياسية والاقتصادية والاجتماعية الواسعة.

وللعولمة سلبيات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية. وأخطرها جميعاً آثارها الاجتماعية، لذلك ينادي قادة العالم بشعارات مثل «عولمة مسؤولة» «الوجه الإنساني للعولمة» «بيئة آمنة خالية من أسلحة الدمار الشامل». وقد رفع هذه الدعوات رئيس الولايات المتحدة - السابق - كلنتون، وكوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة، وقد ذكر ذلك في في منتدى «دافوس» في سويسرا الذي عقد في فبراير ١٩٩٩م، حيث حذر من سوق ليس لها وجه إنساني، الأمر الذي سيجعل الاقتصاد العالمي هشاً وسريع العطب، إذا لم يستفد الناس من أقل عدد ممكن من المعايير المطلوب الالتزام بها. وهو نفس الأمر الذي دعا كلاوس شواب رئيس ومؤسس المنتدى الاقتصادي العالمي أن خصص لقاء هذا المنتدى لتحقيق شعار «من أجل وجه إنساني للعولمة»، وحذر في افتتاحه كل المجتمعين من أنه إذا لم نقم باختراع عولمة أكثر إنسانية وشمولية فيمكن أن نواجه احتمال عودة مواجهات الماضي الاجتماعي الحادة^(٣٧)، وبما أن الحدود الدولية قد تلاشت فصار لزماً إيجاد حدود عالمية بديلة، تتمثل في إيجاد الآليات التنظيمية والقانونية والإجرائية، لتتلافى الآثار السلبية لثورة العولمة^(٣٨).

وتعدى الخوف من العولمة إلى المضاربين أنفسهم، فهذا جورج سوروس المضارب اليهودي الشهير - صانع أزمات بريطانيا (في ١٩٩٢) وأزمة الدول الآسيوية (في ١٩٩٧) وروسيا - يؤكد في كتابه «أزمة الرأسمالية العالمية» هشاشة النظام الرأسمالي العالمي وعدم استقراره. وقد وصف معلق أمريكي فرضيات سوروس بأنها أشبه بمقولة: «امسكني قبل أن أقتل المزيد»^(٣٩).

وأبرز سلبيات العولمة: التركيز على الربح، وعدم اعتبار المسألة

(٣٧) حديث الشهر (الافتتاحية)، د. محمد الرميحي، مجلة العربي (الكويت)، عدد ٤٨٤ نو القعدة ١٤١٩هـ - مارس ١٩٩٩م.

(٣٨) جريدة الخليج، العدد ٧٢٣٣، الثلاثاء ٢١ ذي القعدة ١٤١٩هـ - ٩ مارس ١٩٩٩م.

(٣٩) جريدة الخليج، عدد ٧٢٢٦، الثلاثاء ١٤ ذي القعدة ١٤١٩هـ - ٢ مارس ١٩٩٩م.

الاجتماعية، مثل غياب دولة الرفاه، والتقليل من الضمانات الاجتماعية التي شهدتها القرن الحالي، وحصلت عليها النقابات بعد نضال مرير.

وتبرز سلبياتها في غياب فرص التنمية الوطنية في أغلب دول العالم، وتقلص قوانين وأنظمة الحماية التجارية والاقتصادية للإنتاج الوطني في هذه الدول، والابتعاد عما يسمى بمخططات التنمية، وتلك المحاولا التنموية المحدودة التي وقع انحسارها بسبب تقليص دور الدولة في نظام العولمة.

ولهذا يتوقع انفجار المجتمعات من الداخل عند اشتداد الأزمة، بسبب عمق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد. وإذا كانت الانفجارات الاجتماعية على مر التاريخ كانت حادة، فإن هذه ستكون أحدّ وأعمق، بسبب الشفافية التي يصنعها الإعلام والاتصال فكل شيء «على المكشوف» مهما تستر المتسترون. ومن عمق التناقضات في عصر العولمة: استفحال الفوارق بين شعوب غنية في الشمال تزداد غنى وقوة، وشعوب فقيرة في الجنوب مهمشة تزداد فقراً وتهميشاً.

وخطر العولمة يهدد كيان الحضارات الإنسانية، ويدفع لنشوء حضارة جديدة تعتمد على طغيان رأس المال وجبروته. وهذا الخطر سيهدد العالم العربي والعالم الإسلامي باعتبارهما منطقة استهلاكية ضعيفة متخلفة.

ثانياً - عالمية الإسلام

يذكر «صمويل هانتغتون» أن القرن التاسع عشر امتاز بصراع القوميات، وأن القرن العشرين حظي بصراع الأيديولوجيات، وسيحظى القرن الواحد والعشرين بصراع الحضارات.

والحضارات سبع، منها: حضارتان مشهورتان: الحضارة الكونفوشيوسية، والحضارة الإسلامية، ولا سبيل للوقوف في وجهيهما - وتلك علامة صحة - ولكن ينبغي الوقاية منهما على حد تعبيره^(٤٠).

(٤٠) صدام الحضارات، صامويل هانتغتون، ترجمة وجيه كوثراني وآخرين، طبعة أولى، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت ١٩٩٥.

إن الصراع قائم، ولكن لنر هل صارع الإسلام حضارات سابقة؟ وكيف خرج منها؟

إن أشهر صراع نشأ بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني. فلقد ترجم المسلمون هذا الفكر وتأثر به فلاسفته، وناقشه أئمة المسلمين، ورفضه من رفضه منهم في العبارة الشهيرة «من تمنطق فقد تزندق»، ورضيه بعضهم الآخر كحجة الإسلام الغزالي.

هذا الصراع بين الفكر اليوناني والفكر الإسلامي يدل على صموده وقوته. ولم ينشأ الصراع بين الحضارة الإسلامية وبين هذا التيار اليوناني فحسب، بل استوعبت هذه الحضارة حضارة الفرس، وحضارة الهند، وحضارة الرومان، وكلها قد انصهرت في بوتقة الحضارة الإسلامية المزدهرة يومئذ. ورغم ما يعتري المسلمين من ضعف - الآن - ففي الإسلام مظاهر قوة تجعل من يتمسك به يصمد أمام أعتى الصراعات، بدليل شهادة التاريخ وشهادة مفكري العصر الحاضر من المسلمين ومن غيرهم.

وهذا الجزء من البحث عالمية الإسلام يطرح بديلاً لمواجهة العولمة، خاصة بالنسبة للعالم العربي والإسلامي. فما هي العوامل التي تجعل من عالمية الإسلام بديلاً للعولمة؟

تبدو عالمية الإسلام في مظاهر عديدة شكلت إطاراً كونياً ضم البشرية بمختلف أجناسها، وقدم حلولاً جذرية لمختلف مشاكلها. ويمكن تفعيل عوامل هذه القوة الكامنة في هذا الدين العظيم، لتؤدي دورها الرائد في صد هجمات العولمة الشرسة. وأهم المرتكزات لعالمية الإسلام وتقديمه بديلاً قوياً لهذا التيار الجارف مايلي:

١ - عالمية الدعوة:

إن أعظم الأدلة على عالمية الإسلام: سرعة انتشاره، ودخول الكثيرين فيه في عديد من المناطق، اعتماداً على قوة الحجة في خطاب الدعوة الإسلامية للفكر الإنساني.

وأبرز أمثلة هذا الانتشار: مبادئ ديننا الحنيف التي تبرز عالمية الدعوة تجسيدا لوحدة النوع الإنساني، وترسيخاً لمبدأ سواسية الناس في الخلقة، وتحقيقاً لإرادة الله عز وجل في جعلهم شعوباً وقبائل، ليتعارفوا، ذلك التعارف غير المقصود لذاته، وإنما لما يثمره من تعاون لخير الجميع.

وإذا كان الناس يمتازون بوحدة النوع ووحدة الطبيعة فإن دعوة الإسلام كانت عامة، خاطبت جميع الأمم، ومختلف الشعوب، في شتى الأوطان والبلدان، وفي مختلف الظروف والأزمان، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤١)، ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤٢)، ويقول: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٤٣).

وشواهد الواقع التاريخي تؤيد عالمية الدعوة الإسلامية، ذلك ما يبرز في رسائله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم وحكامه. ويقول موفد المسلمين إلى ملك الفرس: «إن الله ابتعثنا، لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»^(٤٤).

٢ - تجسيد وحدة النوع الإنساني:

يمتاز الإسلام بنظرته إلى وحدة النوع الإنساني. فالناس يشكلون وحدة إنسانية، لا تمايز بين شعوبها وأفرادها في الأصل أو الطبيعة أو المصير، والناس جميعاً ينحدرون من أصل واحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٤٥) هذه النفس الواحدة - عند التدقيق والتحليل - تعود إلى ذكر أو أنثى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(٤٦) ثم إن هذا الأصل

(٤١) سورة الأنبياء / ١٠٧.

(٤٢) سورة سبأ / ٢٧.

(٤٣) سورة النساء / ٧٩.

(٤٤) البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦، ج٧، ص ٣٩.

(٤٥) سورة النساء / ١.

(٤٦) سورة الحجرات / ١٣.

الواحد يعود بعد ذلك إلى أب واحد، ينتسب إلى التراب يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى»^(٤٧).

٣ - وحدة الطبيعة الإنسانية:

هذه الطبيعة أو الفطرة الواحدة في الناس جميعاً ﴿فُطِرَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلَيْمٌ﴾^(٤٨).

وقد منح الإسلام هوية جديدة للإنسان، وأحدث من أجل استيعاب هذه الهوية أمة جديدة، لم يكن لها مثيل - من قبل - بين الأمم، لم تقم على أسس عرقية أو دينية أو لونية، وإنما قامت على أساس الاعتراف بالإنسان. فكان الإسلام دين الإنسان بحق، اعترف بنوازه، فأحكم لها ضوابط في الملكة، والجنس، ووصفه وصفاً دقيقاً في شتى حالاته: فهو المخلوق الضعيف كما جاء في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤٩)، وقد وصف الإنسان بالظلم والجور، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٥٠)، كما ورد وصف الإنسان في القرآن بأنه عجول، ولا أدل على ذلك من الآية الكريمة ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٥١)، كما يوصف الإنسان في القرآن بأنه مقتر بخيل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ

(٤٧) متفق عليه.

(٤٨) سورة الروم / ٣٠.

(٤٩) سورة النساء / ٢٨.

(٥٠) سورة إبراهيم / ٣٤.

(٥١) سورة الإسراء / ١١.

الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾^(٥٢)، ويصف القرآن الإنسان بأنه هلوع، عظيم النهم على الخير، شديد الخوف والجزع من الشرور، غير صبور ولا جلد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾^(٥٣)، وقد وصف الإنسان بأنه كنود، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾^(٥٤)، وهذا الإنسان كثيراً ما يتجاوز الحد في التعدي والطغيان إن أحاطت به العظمة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيطغَىٰ ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾^(٥٥).

هذا الإنسان وصفه القرآن فأبدع، وهو مطلق إنسان في الشرق أو الغرب وفي الشمال أو الجنوب، بل هو مواطن عالمي، صور الله دخائله ونواذعه تصويراً لم تبلغه فلسفات الأرض قديمها وحديثها، وبوأه منزلة لم ترق به الأيديولوجيات مبلغها في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾^(٥٦).

٤ - عالمية الأمة الإسلامية:

الأمة الإسلامية أمة عالمية يجمعها أمر واحد، ودين واحد، وتكاليها واحدة، تحمل أمانة الشهادة على الناس، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿٥٧﴾﴾.

ولكن هذه الوحدة البشرية التي جاء بها الإسلام لم تمنح خصوصيات الشعوب، كما تحاول العولمة أن تفعله، بل اعتبر الله تعالى التمايز بين الناس -

(٥٢) سورة الإسراء / ١٠٠.

(٥٣) سورة المعارج / ١٩-٢٠.

(٥٤) سورة العاديات / ٦-٧.

(٥٥) سورة العلق / ٦-٧.

(٥٦) الإسراء / ٧٠.

(٥٧) سورة البقرة / ١٤٣.

لونا وعرقاً ولساناً - آية من آياته عز وجل، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُ﴾^(٥٨).

والصحيفة الدستور الذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، نص فاصل في الموضوع، عندما صنّف القبائل قبيلة قبيلة، ليكونوا أمة من دون الناس، ولكن هذه الأمة تنسجم فيما بينها، لتكون أمة واحدة وفق مبدأ التناصر، ولقد برزت هذه الوحدة في شتى مظاهر الحياة الإسلامية، ولكنها تنصهر فيها جميع الجنسيات: البربري، والزنجي، والعربي، والتركي، وتبقى خصوصيات الشعوب في تنوعها، يقول أنور الرفاعي - ناقلاً نصاً عن ديماندر أحد المستشرقين -: «يمتاز الفن الإسلامي بتنوعه العظيم، تنوعاً أصاب نواحيه وأشكاله وجماعته وزخرفته وأقاليمه ورجاله. تنوعاً بلغ من الشدة حداً يصعب فيه كثيراً أن تجد فيه تحفتين متماثلتين، ومع ذلك فإنه يمتاز بوحده، فلو أنك عرضت على أي شخص - كما يقول ديماندر - تقتصر معرفته بالفنون على المبادئ العامة والبسيطة، صوراً متنوعة لتحف مصنوعة في العصور الإسلامية، منها - مثلاً - صورة لقطعة من العاج الأندلسي، وأخرى لقطعة من النسيج المصري، وثالثة من الزجاج الدمشقي، فلا شك أنه يشعر بوحدة أساليبها، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعاً إلى الفن الإسلامي»^(٥٩). ورغم عالمية الإسلام لم ينف خصوصيات الشعوب، ما لم تتعارض مع مبادئ العقيدة.

٥ - عالمية الخطاب القرآني للفكر الإنساني:

إن الخطاب القرآني خاطب العقل الإنساني بالإطلاق، ودعاه إلى التأمل والتدبر والنظر في آيات كثيرة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٦٠)، والآيات التي تدعو إلى

(٥٨) سورة الروم / ٢٢.

(٥٩) النظم الإسلامية، أنور الرفاعي، طبعة دار الفكر، ص ٢٨٢.

(٦٠) سورة آل عمران / ١٩٠.

النظر وإعمال الرأي والتأمل أحصاها بعضهم، فأوصلها إلى المئات^(٦١). وهي تحمل تربية عقلية ترقى بمستوى الفكر لمن تدبرها واتبع منهجها.

وقد كان من ثمارها نهضة علمية في شتى العلوم والفنون، شكلت أرضية انطلقت منها العلوم التجريبية التي تزدهي بها حضارة الغرب.

وهكذا يتبين البون الشاسع بين ما تدعو إليه العولمة من ثقافة التتفيه والاستهلاك، وما تدعو إليه ثقافة القرآن، من ترشيد للعقل الإنساني والرقى به في مدارج الكمال.

٦ - عالمية القيم:

والقيم الإسلامية عالمية في ذاتها، مرنة في تطبيقها، لأنها استجابة للفطرة السوية. فقيم العدل والتعاون والمساواة وغيرها قيم عالمية في ذاتها، تواضع عليها الناس جميعاً، واستحسنها العقل البشري في مختلف الأزمان. وهي واضحة في منهجها، مرنة في تطبيقها، تمتاز بالاعتدال والتوسط بين الحقوق والواجبات، وتلائم بين النزعة الفردية والمصلحة الاجتماعية، وتغذي الروح والجسد، وتطمح إلى المثال، مع مراعاة الواقع، وترسخ الثوابت، وتسير التطور.

٧ - عالمية الحلول للمشاكل الإنسانية:

هذه الإنسانية معذبة على مستوى الجماعات والأفراد، فالجماعات تزداد تفككاً وتشرداً، والنزاعات العرقية تطغى وتتفاقم. أما على المستوى الفردي فإن الفرد يزداد قلقاً وفقراً وسامة، ولذلك ارتفعت نسبة الانتحار وشاعت الجريمة، وتهالك الناس على المخدرات، وارتموا على كل ما ينسيهم واقعهم المر. ولا سبيل لخلاص الإنسانية إلا بالحل الإسلامي الذي تناول الإنسان ومشكلاته وطرح لها حلولاً موضوعية خالدة. فاليأس والقلق والجريمة والفقر تعتبر أفتك أمراض العصر، وقد قدم الإسلام حلولها في عقيدة واضحة، ومنهج بَيِّن، لا لبس فيه. فداوى القلق، وعالج، اليأس، وأذهب الغم، وجعل للحالات النفسية

(٦١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، طبعة القاهرة، ص ٧.

أدوية يلمسها من تفهم معاني القرآن الكريم، وتقياً ظلاله، وعاش في رحابه، واقتبس من نور النبوة ما يضيء به مسيرة حياته.

٨ - عالمية النظام الاجتماعي:

أقام الإسلام نظاماً اجتماعياً رائداً، أساسه التكافل، وعماده نسيج اجتماعي متلاحم. فالمؤمنون «أخوة»، أخوة تعلو على رابطة النسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٦٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»^(٦٣).

هكذا المجتمع مفتوح لكل من أراد الانتماء إليه، لذلك ضم إليه مختلف الأجناس والألوان والطبقات، فانصهر فيه البربري والتركي والزنجي، وسرعان ما التحموا مع نسيجه، وداروا مع دولابه، دون عقبات تذكر، وتكافلوا اجتماعياً. فأين هذا مما فعله أرباب العولمة من التقليل من التأمينات الاجتماعية، والحد من دولة الرفاه وما وفرته من تغطية اجتماعية. يقول روبرت كابلان الخبير الأمريكي بشؤون العالم الثالث واصفاً الحالة الاجتماعية للدول الأفريقية في عصر العولمة: «هناك جزء كبير من أفريقيا يقف على حافة الهاوية، لذا فإنها نموذج للصورة التي ستكون عليها الحروب والحدود وسياسة الأقليات في عقود السنين القادمة»^(٦٤). وبعد الحديث عن الفقر وتفاقمه في العالم يقول في هذا الجزء من العالم: «سيكون الإسلام بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية. فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح»^(٦٥). وهو كلام غني عن التعليق شهد به الغرب الذي يتلمس دائماً ما يصم به الإسلام، ويحاول أن يغطي على إيجابياته.

(٦٢) سورة الحجرات / ١٠.

(٦٣) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير، البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في كتاب البر.

(٦٤) فخ العولمة، تأليف هانس بيتر - وهارلد شومان، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٨، الكويت، ص ٦٤.

(٦٥) المرجع ذاته.

ولم يقف التكافل الاجتماعي في الإسلام عند المسلمين فحسب، بل شمل الأقليات العرقية والدينية الأخرى التي تعيش تحت راية الدولة الإسلامية، وشواهد ذلك في التاريخ الإسلامي ساطعة، كمثّل ما فعله عمر بن الخطاب مع الشيخ اليهودي عندما قال: «ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية شاباً ثم نخذله عند الهرم»^(٦٦)، ونفس الأمر يبرز في عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق قال فيه: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»^(٦٧).

٩ - دولة عالمية:

وتبرز عالمية الإسلام في عالمية دولته، لأنها تقوم على عقيدة عالمية، ورسالتها عالمية. وقد تحقق ذلك خلال التاريخ الإسلامي، حيث الدولة الإسلامية تحكم مساحات شاسعة من الأرض تمتد إلى عمق روسيا والصين شرقاً، وتصل غرباً إلى حدود فرنسا. واشترك جميع مواطنيها على اختلاف مشاربهم الثقافية في تسيير دفة الحكم فيها. فلقد تولى يوحنا الدمشقي مسؤوليات في بلاط الدولة الأموية، ولقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم: نصر بن هارون سنة ٣٦٩هـ، وعيسى بن نسطورس سنة ٣٨٠هـ^(٦٨). وقد سجل ذلك شاهد منهم يقول في ذلك: «من الأمور التي نعجب لها كثرة العمال (الولاة وكبار الموظفين) والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية»^(٦٩).

هذه لمحة عن معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وهو ما يدعى في زمن العولمة بحقوق الأقليات، أو بالتعددية الثقافية، ولم يعد الأمر في

(٦٦) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، طبعة ٤، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص ٢٢.

(٦٧) المرجع السابق.

(٦٨) المرجع السابق.

(٦٩) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريّة، لآدم ميتز، طبعة رابعة، فصل اليهود والنصارى، ج ١، ص ٨٦.

العصر الحاضر مقصوراً على اليهود والنصارى، بل ركز الغرب على الأقليات الإسلامية أيضاً: كالأكراد، والشيعة، والبربر، الذين هم داخل الدولة الإسلامية.

وهذه القضية صارت ثغرة يتدخل من خلالها أرباب العولمة في شؤون الدول العربية والإسلامية، لذلك ينبغي الاهتمام بهذه الأقليات، وتاريخنا شاهد على أنها تحظى بمعاملة إسلامية كريمة.

١٠ - حلول الاقتصاد الإسلامي الإنسانية:

يمتاز الاقتصاد الإسلامي بحلوله الإنسانية لمختلف المشاكل المطروحة، فهو يدفع عجلة التنمية، ويحث على العمل والكسب، ويحترم الملكية، ويقود المعاملات: كالشركة، والمزارعة، والمساقاة، وغيرها، بدون استغلال، ويضمن لمختلف الأطراف حقوقهم، ويلزمهم بواجباتهم. والنصوص التي قننت الاقتصاد الإسلامي أكثر من أن تحصى، وأخطر قضية وقع فيها المجتمع الإنساني قضية الربا، وهو محرم بالنص ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٧٠)، وعده الرسول صلى الله عليه وسلم واحداً من الذنوب الكبرى. وقد وجد العالم العربي والإسلامي نفسه في عمق التعامل مع البنوك الربوية إرثاً عن الاستعمار، ولم يستطع الفكك من هذا الأسر، ومما زاد القضية تعقيداً: إسراف هذه الدولة النامية في المديونية من البنوك العالمية، وقد حملها على ذلك التوسع في الإنفاق على الأسلحة، والتوجهات الخاطئة في المخططات التنموية.

وهذه القروض تضاعفت فوائدها، وعجز المقترض عن سداد الأصل والفائدة، الأمر الذي أوقف عجلة التنمية؛ لأنها انصرفت في جهودها إلى التخلص من المديونية.

ومما زاد المسألة تعقيداً: قيام البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بفرض شروط للحصول عليها: كتخفيض العملة، وخصخصة القطاع العام، وما يترتب عن ذلك من تسريح للعمال، أو ما يسمى «بالتقاعد المبكر»، و«تشبيب المؤسسات» الذي أدى إلى الاستغناء عن خبرات لا يزال أداؤها مقبولاً.

(٧٠) سورة البقرة / ٢٧٥.

هكذا يظهر الخلل الاقتصادي الذي شاع في زمن العولمة التي تضع أهم أهدافها الربح، بصرف النظر عما يخلفه ذلك من الآثار الاجتماعية والاقتصادية المدمرة. الأمر الذي ينذر بانتهاء عالمي يفسد أمر الإنسانية. وإذا لم يظهر لهذه العولمة الاقتصادية وجه إنساني كما هو الشأن في حلول الإسلام الخالدة فستحدث ردة فعل كما حدث عند استئراء الرأسمالية على مر التاريخ.

ثالثا - خطوات على الطريق

نماذج من الحل الإسلامي:

إن العولمة خطرها يكمن في هيمنتها الاقتصادية على اقتصاد الدول الضعيفة، وبسط سيطرته عليها، هذه النزعة المادية نابعة عن الفكر الرأسمالي الذي يضع أهم أهدافه الكسب الاقتصادي، هذا الفكر المادي يجد مقاومة مضادة حتى من داخل التيار الرأسمالي نفسه، فضلاً عن التيارات الأخرى.

وإن القوة الكامنة في الإسلام هي القدرة وحدها على كسب الصراع لصالح المسلمين، وتحمينا من العولمة، أو الأمركة، وسائر التيارات الهدامة.

وقد بدأت دول - كالصين - بالرجوع إلى ديانتها «الكونفوشيوسية» بعد أن دانت بالشيوعية ربحاً من الزمن. وفي اليابان - أيضاً - توجه إلى الأخذ بالتراث مع انتهاز الحداثة.

ولقد طرح الإسلام حلولاً لمشاكل الإنسان فرداً وجماعة، حلولاً تورثه الأمن والطمأنينة، وتضمن له الصمود في أعنى الظروف وأشدّها، وسنعرض لمحات منها.

١ - في الميدان الاجتماعي:

أ - الأسرة:

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرفع الإنسان بعنائه، وأن يمدّه بالقوانين التي تنظم علاقاته البشرية التي هي منشأ وجوده، والتي تضمن لنوعه البقاء على الوجه الأكمل.

ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يجعل الإنسان - كغيره من العوالم - يدع غرائزه تنطلق دون وعي، ويترك اتصال الذكر بالأنثى فوضى لا ضابط له، بل وضع النظام الملائم لسيادته والمناسب لتكريم الله له، فجعل اتصال الرجل بالمرأة أساسه المحبة والرضا والمودة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٧١).

وبهذا النظام البديع وضع الله عز وجل للغريزة الجنسية سبيلها المأمونة، وصان كرامة المرأة من أن تكون متاعاً مبتذلاً، وحمى النسل من الضياع، وأحاطه بغريزة الأمومة والأبوة، تشمله الرعاية، فيكون النبات حسناً، والثمر صالحاً. والأسرة الخلية الأساسية للمجتمع، صلاحه بصلاحها.

هذه الأسرة قد تفككت في الغرب فعلينا تفعيل دورها في عالمنا، وتقويتها، لتنهض بمسؤولياتها في الرعاية والتهديب، والمحبة والرحمة. ودورها يكمن في التربية الإسلامية وترشيد الإنفاق، والبعد عن الاقتصاد الترفي، وذلك ما وجه إليه القرآن الكريم في كثير من آياته كقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ (٧٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٧٣)، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٤)، وأيضاً: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٧٥). وفي شواهد الواقع الأدلة الساطعة على قيم الزهد في حياة المسلمين، بدءاً برسولنا الكريم، ومروراً بحياة الصحابة والتابعين، وانتهاء بعلماء الإسلام.

(٧١) سورة الروم / ٢١.

(٧٢) سورة الإسراء / ٢٧.

(٧٣) سورة الأعراف / ٣١.

(٧٤) سورة هود / ١١٦.

(٧٥) سورة الفرقان / ٦٧.

فعلينا تفعيل هذه القيم من خلال الإعلام، لتترسخ في السلوك الفردي والجماعي، حتى تحدث أثرها القوي، وتربك المخططات التي تهدف إلى تقويض البنية الاجتماعية.

ب - الطبقة المتوسطة:

الطبقة المتوسطة نقطة الارتكاز في الدائرة الاجتماعية، والعولمة ستصيب هذه الطبقة بصدمة يكون مصيرها فيها إلى الزوال، بحيث أصبح أفرادها إما في انحدار إلى الطبقة الدنيا، وهم الكثر الكثرة، وإما في صعود وهم القلة القليلة، وبما أن المثقفين والكوادر الوسطى وبعض أصحاب المؤسسات الصغرى يشكلون أغلب أفراد هذه الطبقة التي تحفظ للمجتمع توازنه الاقتصادي والقيمي، لذلك وجب عدم إهمالها ورعايتها في ميادينها المختلفة.

وتوازن طبقات المجتمع أمر بالغ الأهمية، فإذا كانت الرعاية الاجتماعية للطبقات الدنيا واجباً فتوازن طبقات المجتمع وعدم التدني لبعضها الآخر أوجب. هكذا تنظم المجتمعات، خاصة في عصر قُلب مثل عصرنا، وليس الأمر عشوائياً كالماء السائب الذي قد ينبت زرعاً وينفع ضرعاً، وقد يصبح آسناً عكراً، تنتشر منه الأوبئة والآفات.

٢ - في الميدان الاقتصادي:

هناك مبادئ اشتمل عليها الاقتصاد الإسلامي، تجعل منه الحل المؤمل لتجاوز صدمة العولمة والتخفيف من وطأتها، تتمثل فيما يلي:

التركيز على قيم الإسلام النبيلة، الداعية إلى العمل والجد، والإتقان والجودة، والآيات والأحاديث لا تحصى في هذا الباب. فكل عمل يقصد به وجه الله تعالى: كإصلاح الأرض، ومنع الفساد فيها عبادة. فمن زرع زرعاً أو غرس عرساً فأكل منه إنسان أو دابة كتب له صدقة، ومن سعى على عياله فهو صدقة إذا كان قد أخلص نيته لله تعالى.

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في

سبيل الله! فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»^(٧٦).

وإتقان العمل وجودته تشمل القطاع الحكومي والخاص في عصرنا لدفع التنمية، فذلك من صميم مبادئ الإسلام، خاصة إذا كان البلد الإسلامي الذي ينتمي إليه المسلم مهّداً في أمنه الغذائي والاجتماعي والسياسي.

ومما يتصل بهذا الأمر اتصالاً وثيقاً: تطوير الأفراد والمؤسسات، تطويراً مستمراً يتلاءم مع روح العصر، ويواكب التطور، ويكتسب قدرة المنافسة مع المنتجات العالمية، فكسب الرهان يتمثل في الظهور بمستوى لائق في السوق العالمية. ولفظ الاقتصاد - في اشتقاقه العربي - يعني الادخار، وعدم الإسراف، وهو سنة حميدة للفرد والمجتمع والدولة.

والأسرة المسلمة لا تقل مسؤولية عن غيرها في التنمية الاقتصادية، وذلك بإقبالها على الإنتاج الوطني قبل غيره، فإن لم يكن فإن إنتاج البلاد العربية فالإسلامية، مع التحكم في الإنفاق، والإعراض عن التبذير، ففي ذلك الخير كله للأسرة والوطن.

والزكاة فريضة شرعية جلية، قرنت في معظم الآيات بالصلاة، تأكيداً على معانيها النبيلة في حياة المسلمين، ضماناً للرعاية الاجتماعية، وتحصيلاً لحق الفقراء والمساكين من الأغنياء، وتوظيف توزيعها توزيعاً عادلاً يسهم في التقدم الاقتصادي، ويحفظ التوازن بين طبقات المجتمع الإسلامي.

والتعاون بين الدول العربية والإسلامية أمر جاء به الإسلام، وتؤكد المصلحة وضرورة عصر العولمة. فبيع المنتجات الصناعية والتجارية يجب أن يتم بين دولنا، وأموال الاستثمار أنفع لأصحابها أن تستثمر فيما بيننا.

أما تبادل الخبرات والتنسيق - خاصة بين الدول التي حققت نسبة نمو مرتفعة مثل ماليزيا قبل أزماتها الأخيرة - فيجب أن يتم عن طريق التشاور

(٧٦) أخرجه الطبراني في معاجمه والبيهقي من حديث أنس وابن عمر.

وعقد المؤتمرات العلمية التي تقدم الدراسات لمختلف القضايا وتقترح الحلول، وقد تبدو النتائج هزيلة في بدايتها، ولكن آثارها عظيمة على المدى القريب والبعيد خاصة.

ويمكن للمنظمات الإسلامية أن تلعب دوراً رائداً في إقامة مؤسسات اقتصادية إسلامية، مثل بنك تشترك فيه الدول الإسلامية بالمساهمات المحددة لجميع المسلمين حكومات وشعوباً، تخصص جهوده لتقوية الصلة بين الدول العربية والإسلامية، ويكون فاعلاً ودافعاً لعجلة التنمية، وأيضاً جعل سوق مشتركة، أو بعث بنوك تنمية، أو استغلال مناطق اقتصادية استغلالاً حسناً يتم فيها التكامل الاقتصادي بين الثروات الطبيعية ورأس المال المادي والبشري.

٣ - في ميدان التعليم والبحث العلمي:

أ - التعليم:

إذا كان الاقتصاد مشكل الدول النامية فالتعليم أعقد قضاياها، سبب ذلك انتشار التعليم انتشاراً جعل الاهتمام ينصرف إلى الكم بدل الكيف، ولكل من الخيارين سلبيات وإيجابيات معروفة. ويبدو أن خيار الاهتمام بالكيف يترجح على اختيار الكم الذي أنتج بضاعة هزيلة لا يعول عليها في شتى الميادين. ولو وقعت استشارة لفضل الناس نوعية جيدة من الخريجين على هذا الكم الهائل الذي لم يتعلم من المدرسة إلا الاتكال والبحث عن السهولة في كل ميدان.

والتعليم في زمن العولمة أخطر القضايا، لأنه يتطلب معلماً مكوناً تكويناً علمياً وتربوياً جيداً، ومناهج دراسية متطورة قابلة للمراجعة والتطوير، من أبرز موادها التدريسية: الكمبيوتر تدرج فيها اللغات الأجنبية، وخاصة اللغة الإنجليزية، وتقدم فيها العلوم المختلفة، وترصد فيها الموازين الضخمة للبحث العلمي، ولا معنى لجامعة بدون بحث علمي يصرف عليه بسخاء وتشجيع. إن الإنفاق على التعليم استثمار على المدى البعيد، ولا سبيل لنا في القرن الحادي والعشرين إلا بتركيز العناية بالإنسان، وتعميق هويته من خلال الأسرة والمدرسة والمعهد والجامعة.

وإن رهان التنمية في زمن العولمة لم يعد سهلاً ولا ميسوراً، وليس مطلب النخبة، بل مطلب وهاجس لجميع الطبقات، نظراً لما يتهدد حاضرها ومستقبلها من فقر وجهل وبطالة. هذه الآفات الخطيرة التي تحرم مجتمعاتنا من الأمن والاستقرار والرخاء.

وهكذا، فإن خطورة الوعي بهذه القضية يفرض علينا مسؤولية خطيرة توجب التصدي بحزم لخطر هذه التيارات الزاحفة على قيمنا الثابتة، وأصالتنا العريقة، التي صمدت على مرّ التاريخ في وجه التيارات الهدامة.

وتجديد التربية وتجديد مهماتها في - عصر العولمة - أمر فرضه العصر، واحتل مقام الصدارة في البلدان المتقدمة، فلقد كتب الأمريكيان التقرير الشهير «أمة في خطر» وتقرير «استراتيجية التربية لأمريكا ٢٠٠٠» عام ١٩٩١. وكذلك فعل اليابانيون في تطوير نظامهم التعليمي، ومثلهم فعل البريطانيون. وإذا كانت الدول المتقدمة قد أوجبت على نفسها هذا الأمر فهو على الدول العربية والإسلامية أوجب، لأن الدخول إلى القرن المقبل ليس بالكثافة السكانية أو المال، وإنما بتطوير القدرات العلمية والمعرفية والتكنولوجية. وقد قال أحدهم: «إن من أبرز معالم العصر تحول مصادر القوة من الثكنات إلى الجامعات».

وفي ندوة مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان «العرب والعولمة» التي عقدت في بيروت بين ١٨-٢٠ ديسمبر ١٩٩٨ تساءل كثير من الباحثين عن مدى قدرة البلدان العربية على مواجهة التحدي، وأجابوا بنعم إذا عزمنا على الاستثمار في التعليم - من خلال عملية متكاملة وغير منعزلة عن شتى ظروف العصر - استثماراً مدروساً دراسة علمية^(٧٧) يستجيب لمبادئ مرنة تنسجم وحاجات التغير المستمر، وتأخذ بمبدأ التربية المستمرة من «المهد إلى اللحد» بل تبدأ قبل الولادة عن طريق تدريب الأمهات والعناية بهن، وتمتد بعد الولادة، وقبل دخوله الروضة. ولم تعد مقاعد المدرسة النظامية في عصرنا إلا جزءاً من

(٧٧) العرب والعولمة لمحمود الأطرش، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٢٩، ٣/١٩٩٨، ص ١٠٠.

شبكة تربوية أوسع وأشمل وأفضل، تضم سائر أشكال الإعداد والتدريب، وإعادة التدريب تبعاً لحاجات المجتمع^(٧٨). وما يتطلبه من وظائف وأعمال جديدة تتصل بتكنولوجيا العصر كالكمبيوتر والإنترنت وغيرها.

والنظام التربوي يكمن نجاحه في منح القدرة للطلاب على التعلم والاستمرار فيه، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال برنامج هادف، أساسه التوجيه، وعماده اللجوء إلى طرائق عمل، تعتمد على مبادرة الطالب نفسه وجهده الشخصي، وإحالاته على المراجع، وفي التقنيات التربوية الحديثة عون على التعلم الذاتي، هذا المبدأ الأصيل في تراثنا، وقد جاء قولهم في هذا الشأن: «من لم يُعَلِّمْ نفسه لم يفلح في تعليمه معلم».

ولعلّ أخطر ما يتهدد تعليمنا طريقة التلقين، وهي طريقة تهدم التفكير، ولا تعلم الحوار، ولا تدرب على النقد، فكيف سنواجه مخاطر العولمة التي تهدد بتهميش كل أمة، وكل مجتمع لا يستطيع مواكبة العصر، والإفادة من الفرص الهائلة التي توفرها العولمة، بفعل التطورات المتسارعة في العلم والمعرفة؟

ب - البحث العلمي:

لقد أصبح البحث العلمي يحتل موقعاً أساسياً في استراتيجيات التقدم والحدثة ومواكبة العصر، بل وفي الدفاع عن الذات، وحماية الدولة والمجتمع من الأخطار الداخلية والخارجية.

لهذا فإن تمويل البحوث يحظى بنسبة عالية من إجمالي الناتج القومي في الدول المتقدمة. ففي الولايات المتحدة تبلغ هذه النسبة ٢,٦٪ من إجمالي الناتج القومي، والارتباط قوي بين النشاط العلمي والاقتصادي، وقد برز هذا الأمر منذ القرن التاسع عشر، وازدادت وتأثره في المكتشفات الأخيرة كالفضاء والحاسوب والهندسة الوراثية. وفي فرنسا تبلغ النسبة ٢,٣٪، وفي ألمانيا

(٧٨) مقال دور التربية المتغير مع دخول القرن الحادي والعشرين مجلة شؤون عربية، نو القعدة ١٤١٨هـ - مارس / آذار ١٩٩٨، ص ١٣٥.

٢,٨٪، وفي اليابان ٢,٩٪، وفي بريطانيا ٢,٣٪، وفي إسرائيل يرصد للبحث العلمي ٢,٨٪، وفي الاتحاد السوفياتي السابق كانت النسبة عالية إذ تبلغ حوالي ٣,٧٪^(٧٩).

أما الإنفاق على البحوث في دول العالم الثالث فهو أقل ٣٠٠ مرة من الإنفاق عليها في الدول المتقدمة. وفي العالم العربي فإن نسبة الإنفاق على البحث لا تتجاوز ٠,٢٪، يُصرف جُلّه على الكوادر الوظيفية المثقلة بالبيروقراطية، وهي نسبة تقل باثنتي عشر مرة عما ينفقه الغرب وتعادل ٧٪ مما تنفقه إسرائيل على البحث العلمي.

ولقد برزت أهمية البحث العلمي بصفة واضحة عند دول كانت تعاني من أزمات اقتصادية وتخلف، ثم تحسن أدائها بالبحث العلمي، إذ تمكنت - منذ الستينات من القرن العشرين - كل من كوريا الجنوبية، والصين، والبرازيل وسنغافورة، وتايوان، وماليزيا من ربط منظومتها للعلم والتقانة بالاقتصاد. وأصبحت الموارد متوفرة لتطوير مختبرات البحث والتطوير، وتوسيع قاعدتها الصناعية والتقانية، وحققت كوريا الجنوبية مستوى من الدخل بالنسبة إلى الفرد يوازي ما هو عليه في أوروبا. ويتوقع أن تصبح الصين خلال العشرين أو الثلاثين سنة القادمة من أكبر الأقطاب الاقتصادية في العالم. وفي الهند نهضة علمية حيث أقامت مراكز أبحاث صناعية وعلمية تبشر بمستقبل واعد في الأمد القريب^(٨٠).

هذه النماذج ليست بعيدة عن تجاربنا، ويمكن إدراكها والتعاون معها إذا صدق العزم.

لقد ضيّع العرب فرصة نادرة عندما انحل الاتحاد السوفياتي، إذ لم يستقطبوا علماءه، وكان ذلك ميسوراً.

(٧٩) العرب وتحديات العلم والتقانة، أنطوان زحلان، سلسلة حلقات **جريدة الخليج**، الحلقة الخامسة والسادسة، عدد ٧٢٣٢، الإثنين ٢٠ ذي القعدة ١٤١٩هـ - ٨ مارس ١٩٩٩م وعدد ٧٢٣٠ السبت ١٨ ذي القعدة ١٤١٩هـ - ٦ مارس ١٩٩٩.

(٨٠) العرب وتحديات العلم والتقانة، أنطوان زحلان، **جريدة الخليج** الحلقة السادسة، عدد ٧٢٣٢، الإثنين ٢٠ ذي القعدة ١٤١٩هـ - ٨ مارس ١٩٩٩م.

ومهما يكن من أمر فإن إنشاء مراكز بحوث علمية أمر فرضه عصر العولمة، وتفعيل دور الجامعات وربط بحوثها العلمية بالمجتمع - عموماً، وبالاقتصاد على وجه الخصوص - أمر من أهم وظائف الجامعة.

وما يشاهد من هوة بين الجامعات ومؤسسات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في العالم العربي أمر غير طبيعي، لأن المفروض في أساتذة الجامعات انخراطهم في المشورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والقرارات العليا في الدول المتقدمة لا تصدر إلا بعد دراستها من قبل المراكز العلمية، ثم تحال بعد ذلك إلى الجهاز التنفيذي لتفعيله.

وفي هذا العصر «عصر العولمة» «إما أكل وإما مأكول»، لذا صار الأخذ بالبحث العلمي في أعمالنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ضرورة فرضها العصر، كما فرض ضرورة التنسيق والتعاون المحلي والإقليمي والدولي.